الشيخ محمد عبده

الحالة السياسية والاجتماعية التي كان يعيش فيها ـ حياته وبيئته ـ تأثير ذلك في
نفسه ومظاهره في نثره ـ ألفاظه وأسلوبه ومعانيه ومميزاته ـ مقارنة
كلامه موازنته بغيره من كتاب عصره

بقلم

أحمد الشايب

المدرس بكلية الآداب ـ الجامعة المصرية

حقوق الطبع محفوظة

سنة ١٩٣٢

obeikandl.com

obeikandl.com

الشيخ محمد عبده

١٢٦٦ — ١٣٢٣ هـ

لعل الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده فى مقدمة الرجال العصريين الذين لا نزال الى اليوم ، وسنبقى إلى أمد بعيد متأثرين بمحاولاتهم الاصلاحية فى الأدب والدين وفى السياسة والاجتماع ، سواء ذلك فى القطر المصرى وطنه العزيز ، وفى العالم الاسلامى الذى كان فيه خير مصلح دينى ، بل وفى الشرق كله حيث كان يمد بصره وبصيرته فى جوانبه فيفزع لهزيمته أمام الغرب ويحاول أن ينفخ فيه روحا فتية عساه ان يستعيد مجده ويسترد سلطانه وجلاله . . . فاذا ذكرنا النهضة الأدبية الحديثة التى أعقبت عصر احتضار اللغة العربية وآدابها ، , فالأستاذ ، ، من أعلامها الخفاقه ، وأقلامها الفاتحة ، وعقولها المفكرة ، وألسنتها الدارة ، وإذا كنا نشعر اليوم بحركة اصلاحية طريفة فى المعاهد الدينية والمحاكم الشرعية وفى دور التعليم حيث تتصل الحياة الدينية بالحياة المدنية العلمية فلقد كان الامام واضع أساسها وفاتح بابها متأثراً فى ذلك أستاذه الفذ السيد جمال الدين الأفغانى على رغم مالقيا من عنت الرجعيين ، وحروب المحافظين ، وان نحن عرضنا للسياسة التى تصل الشرق بالغرب ، ومصر بأوربة ، فربما كان محمد عبده خير من انتهج الخطة الخالصة المعقولة ليقى هذه البلاد شر الاستعمار والنفوذ الاجنبى حتى حمل فى سبيل ذلك من السجن والابعاد ما ينوء عنه اليوم من شهدوه واتصلوا به فى مصر وغيرها .

وأما التقويم الخلقى ، واصلاح القوانين ، وبث الفكر السديدة ، وإذاعة الكتب المفيدة ، ومحاربة البدع والضلالات ، والحدب على المصريين والاسلام

فلم يظفر التاريخ الاسلامى منذ قرون خلت بمثل هذا الشيخ دائبا فى ذلك واقفاً عمره مضحيا براحته وماله حتى كان رجل الأمة المرجو لدينها ودنياها والمحترم لدى حكامها ورعاياها ولدى الشرقيين والغربيين . فلما مات دون الستين كان موته موت الآمال ورزء الشرق والاسلام .

مصر السياسى

العصر الحديث من ١٢٢٠ هـ و ١٨٠٥ م الى اليوم

ليس من الغريب ان نعتمد على نقطتين اثنتين إذا أردنا ان نتبين أحوال مصر السياسية والاجتماعية فى كل العصور التاريخية ولا سيما هذا العصر الحديث الذى وصل بين أجزاء العالم ومال بالشعوب الى الوحدة العامة وتكوين أسرة عالمية تتجاوب نواحيها باية حركة علمية أو أدبية أو اختراعية أو فنية .. هاتان النقطتان هما موقع مصر الجغرافى أولا ثم طبيعتها ثانيا .

فلقد وهب الله مصر هذا النيل المبارك الذى ينتظم فيضه على مر السنين فيجود عليها بطبقة خصيبة تزيد ارضها قوة ، ثم ينظم دوراتها الزراعية على مدى العام ، فانصرف الناس منذ القدم الى الزراعة مطمئنين عاكفين لا يزعجهم اضطراب (الفيضان) ولا تقلب الجو العاصف ، وقامت الصحر ؟ وان كالحصون تحمى هذا الوادى وأهليه من الخلطة القوية المطردة بسائر الشعوب ، فعاش المصريون وادعين قانعين بهذه الحياة الراضية الهينة كأنهم فى حلم لذيذ لا يعنيهم كثيراً نوع الحكومة أو عنصرها مادامت بعيدة عن العبث بأرزاقهم ، والعدوان على حياتهم الرتيبة وازعاجهم فى هذا الهدوء .

فكان من ذلك أن اشتهر المصريون بالوداعة الكرم وطيب الخلق وصفاء النفس والميل الى الهدوء وقوة الايمان والمحافظة على التقاليد حتى ليحتاج المصلح المجدد إلى جهود عنيفة ، ومشقات عدة ليبعث فى هـــذه الأمة معتقداً أو يحولها عن سبيل لاضطراره إلى ايقاظ تلك الارواح وتنبيهها إلى مايحدق بها

من شر وما يليق بها من خير ، تجد ذلك فى كل رجال الاصلاح المصرى واقربهم الينا محمد عبده ، وقاسم أمين ، ومصطفى كامل ، وغيرهم كثير ، . . . ولهذا أيضا توالت على وادى النيل حكومات ودول اكثرها غريب دخيل من الفرس والرومان والعرب والاتراك والفرنسة ، لانكاد احداها تجد معارضة تذكر وإن كانت فى المدن وإلى أجل ، ثم تجرى الأمور فى مجراها الوديع العادى حتى حقت على مصر كلمة عمرو بن العاص « هى لمن غلب » .

وأما موقعها الجغرافى بين الشرق والغرب وتوسطها بين القارات فقد أطمع فيها الدول الناهضة التى تتنافس فى السيطرة عليها لتكون مركزاً تجارياً أوسياسياً أو علميا يصل العالمين الغربى والشرقى ولاسيما بعد فتح قناة السويس ، وانتشار المواصلات العالمية ، وتسابق الدول الاوربية إلى استعمار الشرق واستثماره لنشر المتاجر وتغذية الحركة الصناعية فى أوربة فتكونت لمصر من هذا صفة (دولية) وأصبحت مسائلها تعنى أغلب الدول العالمية لذلك ، ولكثرة الأجناس والعناصر التى نزحت اليها تعيش فى خيرها الكثير ، فاشتهرت بغناها وحضارتها وتوسط مدنها بين الحركة العلمية والتجارية قديماً وحديثاً ، وآخر الأمر رأينا انجلترا وفرنسا تسبقان غيرهما وتتنافسان فى الاستيلاء على هذه البلاد متذرعين بسائل شتى حتى انتهت بالاحتلال الانجليزى أيام الحكومة العلوية القائمة

فانظر إذاً كم يلقى المجدد السياسى فى مصر من العقبات الداخلية والخارجية التى تتصل بالشعب نفسه وبالدول ذوات المنافع فى هذا القطر ! . .هذا ماجعل المسألة المصرية من أعجب المسائل وأعقدها ، فلم تكد تبدو على تركيا علامات الضعف آخر القرن الثامن عشر الميلادى حتى جرؤ نابليون فحمل على مصر حملته المشهورة (سنة ١٧٩٨) يحاول كسر شوكة انجلترا فى الشرق وتغيير مجرى الاحوال فى الهند ، ولكن انجلترا لم تمهله واضطرته هى وتركيا الى سحب جنوده بعد واقعة (أبى قير) التى اشترك فيها « محمد على » ذلك الذى وصل بمساعيه الى ولاية مصر سنة ١٨٠٥ م فأسس بذلك هذه الدولة العلوية الحاضرة ، ودعمها

بجيش قوى طهربه البلاد من المماليك ، وفتح فى سوريا وبلاد العرب والسودان والاناضول وكاد يجهز على تركيا لولا وقوف الدول فى وجهه ، ولكنه عنى بالبلاد المصرية ونهض بها نهضة مادية بمساعدة الفرنسيين ورجال البعوث العلمية وقام باصلاح كثير ادارى واقتصادى حتى نشطت الصناعة وتحسنت الزراعة وساد الامن ، وانتظمت الأمور ، وتكونت لمصر رهبة وحياة قوامها العلوم والجيش والصناعات والزراعة وكل ما من شأنه أن يقيم جسم هذه الدولة الناشئة ، وفى آخر عهده ولد (محمد عبده) سنة ١٨٤٥ م (بمحلة نصر) فى اقليم البحيرة على المشهور ، فلما كان عهد عباس الاول وسعيدباشا فترت حركة الاصلاح وظهرت فكرة الجمود والاستبداد فى الحياة العلمية والادبية وبدأ تدخل الأجانب فى شئون القطر على يد المندوبين (القناصل) وكانت الديون وقناة السويس هى المنفذ الواسع لعبث هؤلاء الأجانب بالحرية المصرية والحكومة القومية ، نعم ان اسماعيل باشا حاول ان يستعيد عهد جده ويقرن النهضة السياسية بالتقدم المادى والعلمى والأدبى فلم يوفق تمام التوفيق لما اعترضه من المحن السياسية والاقتصادية وحرص الانجليز والفرنسيين الا تفلت مصر من أيديهم وتقوم حجراً عثرة فى طريقهم الى الشرق ، فاستعانوا على ذلك بكل وسيلة وراقبوا المالية والحياة النيابية حتى ضاق الشعب والحكومة ذرعا واضطرب الجيش ، وشعر الناس بكرامتهم المجروحة وكان جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وغيرهما كثير يعملون لتنوير الرأى العام بوساطة الصحف والتدريس والجماعات الخيرية والمنتديات العامة فضلا عن الحركات الدستورية النشيطة فى اوربة وتركيا . . . كل ذلك أدى الى انشاء (مجلس النواب سنة ١٨٦٦ م) ولكنه لم يجرؤ على المعارضة كالصحف أيضا ، فبقيت الادارة العامة فى يد الأجانب وانتشر البؤس والفاقه وكثرت الضرائب وضعف سلطان الحاكم (الخديو) واشتدت المعارضة ضد التدخل الأجنبى هذا الذى استمر حتى عصر توفيق باشا وكان السبب القوى الثورة العرابية المشهورة التى كان جل أعضائها من (الحزب الوطنى) الذى تألف فى حلوان حول سنة ١٨٧٨م وانضم اليه سلطان باشا وشريف باشا وعمر باشا لطفى وعرابى وعبد العال وعلى فهمى والبارودى وغيرهم كثير لهم مجتمعات سرية لتنظيم شئونهم والاستعداد للطوارىء .

كان العرابيون يطلبون الحياة الدستورية وتقوية الجيش ليكون الأمر شورى والدولة مهيبة الجانب وقد أشار الى ذلك البارودى فى قوله يهنىء توفيق باشا بولايته العرش :

أمران ما اجتمعا لقائد أمة إلا جنى بهما ثمار السؤدد
«جمع» يكون الأمر فيما بينهم شورى وجند «للعدو» بمرصد

إلا أن هؤلاء العرابيين كان منهم المتطرف أمثال عرابى وعبد العال كما منهم المعتدل أمثال البارودى ومحمد عبده مستشارهم وداعيهم الى التؤدة والتروى حتى أعنتوه وثاروا فى وجهه اثناء اجتماعهم احدى الليالى ، ومهما يكن من شىء فلم تكن الدول الاوربية ولا سيما انجلترا لتسمح بقيام حكومة وطنية قوية بوادى النيل فرصدت الحوادث بيقظة واتخذت منها سبيلا الى احتلال مصر سنة ١٨٨٢ م ولم تجد مقاومة العرابيين لفقدهم الحزم والتضامن وعون الحكومة التركية ، ثم عوقبوا بالابعاد ومنهم (الشيخ محمد عبده) الذى قضى عليه بمغادرة مصر اكثر من ثلاث سنين كما ستعرف تفصيل ذلك بعد حين .

يعتبر الاحتلال من غير شك وسيلة السلطان الاجنبى على مصر لذلك بقى موضع المناقشة بين المصريين على اختلاف احزابهم وبين انجلتره الى الآن ، وإن كان قد تم فى ظله إصلاح فى نواحى الحياة المصرية اقتصادياً وفكرياً واجتماعياً نشير هنا الى محاولات محمد عبده الاصلاحية فى التعليم والقضاء ، والأدب والأخلاق أيام توفيق وعباس الثانى ، ولكن تلك الحرب العظمى وما وليها قد هزت العالم وبعثت فى المصريين رغبة قوية فى الاستقلال بـــلادهم والعمل على بلوغ الكمال سياسياً وعلمياً ، وقاموا يثورون ويحاولون الاتصال بالثقافة العالمية والحياة الحرة الراقية ، ولا يزالون حتى الآن فى جهاد نرجو أن يفوزوا منه بخير نصيب .

عصره الاجتماعى

لذلك ليس من الغريب أن نعد هذا العصر الحديث عهد نهضة اجتماعية أدبية علمية وأن نلاحظ مابينها وبين نهضة أوربه النهضة (العباسية) من المشابهة فى بعض النواحى . . . ولم لا ؟ أليست النهضة الأوربية خروجا من القرون الوسطى المظلمة

كما أن هذه النهضة الحديثة لدينا خروج من عصر مظلم سيطر على البلاد العربية بعد القرن العاشر الهجرى الى أوليات نهضتنا ؟ بل إن عهد الأتراك والمماليك إنما كان قطعة من القرون الوسطى استقرت هنا فى الشرق حتى أفزعتها حركة «الاشراق» فى الشام ومصر .

وعلام اعتمدت كلتاهما ؟ على المعارف والآداب القديمة ولا سيما الفلسفية أولا ثم التصرف فيها بما يناسب الحياة الجديدة ثانياً . . . فعكف الأوربيون على إحياء المعارف والآداب اللاتينية والاغريقية مباشرة أو بوساطة العرب فى اسبانيا وسواها ، ثم بنوا عليها تقدمهم الفكرى والعلمى الذى أطرد سيره الى هذا العصر كذلك عكف الناس فى الشام ومصر أول الأمر على الانتفاع بالأدب العربى القديم ثم الاتصال بالحضارة الغربية ولا يزال شأنهم الى اليوم العمـــل على التصرف فى هذا القديم ليحيا ويقوم عليه جديد يوافق مقتضيـات هذا العصر وحاجة نفوس أهليه .

ولئن شملت النهضة الأوربية نواحى السياسة والدين والأدب والاجتماع فلا شك أن نهضتنا هذه تحاول إصلاح هذه النواحى أيضاً وكان محمد عبده فيها يشبه (لوثر) المصلح الدينى الخطير . . . وآخر الأمر لم لاتكون الثورة العرابية أشبه بالثورة الفرنسية فيما لابسها من عنف سياسى ونضج فكرى وأدبى وظهور رجالات جالوا فيهما جولات واضحة معروفة ؟

ولقد ذكرت لك فى دروس (تاريخ الأدب) أن هذه النهضة الحديثة تشبه أختها زمن الدولة العباسية فى اعتماد كل منهما على الثقافة الأجنبية فى أغلب أمورها تلك أفادت من فارس ويونان وغيرهما وهذه أفادت من فرنسا وانجلتره وسواهما إلا أن المقومات العربية فى الحال الأولى كانت قوية فاخضعت العلوم والآداب الأجنبية لسلطانها وحلت محلها فى أوطانها وأوشكت ان تقضى عليهـا ولـكن الحضارة الغربية فى الحال الثانية هجمت بقوتها على البلاد العربية فى شيخوختها وهرمها فقامت هذه تتعثر وتدفع عن نفسها شر هذا السيل وتنتفع بخيره محاولة احياء مقوماتها الأولى وتجـــديدها بما يناسبها من ثمرات تلك الحضارة الحديثة فأخذت فى اسباب ذلك ولاتزال تعمل على رغم طغيان الحياة الفرنجية علينا

واتجاهنا فى كل شىء اليها حتى فتحت بلادنا فتحاً أدبيا فوق الفتح السياسى والاقتصادى

ومهما يكن من شىء فلن يفوتنا ملاحظه تنقل أسباب الحضارة بين الشرق والغرب من اقدم عصور التاريخ الى وقتنا الحالى . فلقد نشأت فى اليونان قديماً ثم نقلت الى العرب أيام الدولة العباسية والاندلسية ، ولما كانت الحرب الصليبية وفتح القسطنطينية وصلة الفرنجه بعرب اسبانيا ومسلميها تحولت تلك الوسائل العلمية والأدبيه الى أوربا عقب القرون الوسطى فساعدت كثيراً فى نهضتها الحديثة ولكنها استقرت الى اليوم قوية مزهرة وأخذت تعود الى الشرق فى اسلوب علمى اختراعى جليل وجميل أيضاً ، وربما كانت الارساليات المسيحية إلى بلاد الشام أول بارقة لحياة الشرق الجديدة فصادفت جهلا شائعا وانحلالا خلقياً وفساداً فى جميع الأحوال، ولكنها أفادت بعض الشىء فى نشر اللغة وآدابها وشىء من المعارف الغربية ، وقد تبعها وقارنها حملة نابليون التى أدت إلى إحضار المطبعة العربية إلى مصر وإنشاء الصحف والمدارس والمكتبات العامة والعناية بالفنون الجميلة والبحث عن الآثار القديمة فتنبه الناس الى تلك الحياة العلمية الطريفة وتيقظ فيهم الشعور بحاجتهم إلى التهذيب الخلقى وإلى الرقى الفكرى العلمى ثم إلى الاستقلال الذى شغل عليهم هذا العهد الحديث : فلما جاء محمد على باشا وجه عنايته الى التعليم العملى وحمل الناس عليه حملا ، ولم يكن فى مصر إلا الأزهر حيث تدرس العلوم اللغوية والدينية بذلك الأسلوب العتيق وإلا تلك « المكاتب » المنبثة فى القرى حيث يحفظ القرآن وتدرس الكتابة والقراءة بطريق الرهبة الممقوتة وحول ذلك جهالة عمياء وخرافات ذائعة ، وشقاء مادى ، وضعف خلقى حاول هؤلاء الولاة علاجه بالتربية والتعليم ، بدأ ذلك منذ محمد على ولكنه كان واضحا أيام اسماعيل الذى عنى وسط الاضطراب السياسى باصلاح القضاء والادارة وشق الترع وبناء المصانع وتجميل المدن ومعاضدة الكشف الجغرافى وارسال البعوث وفتح المدارس المختلفة مما عاد بشىء من الهدوء والنور العقلى ، نذكر هنا عدا الأزهر مدرسة دار العلوم حيث كان يدرس الأستاذ الامام عقب تخرجه من الأزهر ويريد أن يتخذها مع الأزهر وسيلة لاصلاح المصريين والمسلمين وفى هذه الفترة كانت نهضة فكرية ترمى إلى الاصلاح العام يعد جمال الدين الأفغانى زعيمها الأول

فأخذ يبث فى الناس الفكرة الدستورية ويحرك فيهم العاطفة الوطنية مستعينا فى ذلك بتلاميذه (ولا سيما محمد عبده) فكان يأمرهم بالخطابة والكتابة فى الصحف ويفتح لهم النوادى ويعقد بينهم المناظرات الفلسفية والأدبية حتى خافت الحكومة شره واضطرته إلى مغادرة البلاد ولكنه أوجد روحا فكرية استطال أثرها إلى هذا اليوم ، وكان منها نهضة سياسية كما أسبقنا وأخرى اجتماعية خاصة ينهض بها قاسم أمين وثالثة دينية كانت أظهر ميزات الشيخ محمد عبده وكانت هى الغالبة على سواها لمكانة الدين فى النفوس وحاجته إلى التنقية والتصفية مما علق به من الخرافات والأساطير الذائعة فى ألسنة الناس وكتب الفقه والتفسير والحديث وزد على ذلك ما أصاب الاخلاق من ضعف بتوالى الظلم والجهالة وانتشار الأجانب فى المدن والقرى يبيعون الخمور ويأكلون الربا محتمين بامتيازاتهم ودولهم لا يردعهم رادع

ومما زاد مشقات هؤلاء المصلحين ماحدثناك به قبلا من ميـــل المصريين الى المحافظة والبقاء على القديم وخصوصاً فيما يمس الدين والعادات الشعبية فاصطدم كل من قاسم أمين ومحمد عبده بجماعات المحافظين الذين اتهموهما بالزيغ ووقفوا لهما فى كل طريق يذودونهما دون الغايات ولكنهما مضيا قدما مؤمنين بما يبغيان

ومنذ عصر اسماعيل وقيام الثورة العرابية تظاهرت عوامل شتى على اقامه النهضة وإطراد سيرها كالمطبعة والصحف واتصال الشرق بالغرب وتعلم اللغات الأجنبية وانتشار التعليم والمدارس المختلفة والأندية وعناية الشـــعب بالتربية وتقدم الشئون الاقتصادية والصحية . كذلك ظهرت أثناء الثورة وبعدها طبقات من الرجال النابهين فى الشام ومصر تعاونوا فى هذه البلاد على ترقيتها أمثال البارودى وعبد الله فكرى والأفغانى وعلى مبارك والبستانى والمويلحى ثم محمد عبده وقاسم أمين ومصطفى كامل وعبد الله نديم وحفنى ناصف والشيخ على يوسف واسماعيل صبرى وغيرهم من المعاصرين الذين يخدمون النهضة فى لونها الأخير المتأثر بالحضارة الغربية الى حد بعيد

ونشير هنا الى تأثير الحياة الفرنسية ومظاهرها فى النفوس الشرقية وما تبعته

فيها من غيرة وميل الى النشاط الفكرى وإيمان بالحياة الدنيا والشغف بها ... ذلك لأن الأستاذ الامام أقام بفرنسة مدة ودرس اللغة الفرنسية واتصل بجماعة من علمائها وفلاسفتها (أثناء نفيه) وكان متأثراً فى حياته بما رأى هناك وأفاد كما يلقاك فى المقالة الثانية

وجملة القول ان الشيخ محمد عبده عاش فى عصر جهاد سياسى واجتماعى يتناول الحياة الشرقية الاسلامية فى دينها وقوميتها والشئون المصريه فى سياستها وخلقها ومعارفها ، وكان موقفه منها موقف المصلح المجدد ، وأهم الحوادث المتصلة بحياته هى الثورة العرابية وما سبقها ولحقها ، ثم الاصلاح الدينى الاجتماعى ، وما استدعى ذلك كله من آثار أدبية مفيدة .

حياته وبيئته

تأثيرهما فى نفسه ومظاهر ذلك فى نثره

« ١ » أصله — محلة نصر قرية من قرى مركز شبراخيت بمديرية البحيرة شمالى القطر المصرى ، لاتمتاز عن سائر البلاد الريفية فى شىء حسى أو معنوى أو علمى ، يعمل أهلها فى فلح الأرض واستثمارها شأن المصريين الذين يبعدون عن المدن الكبيرة ، وفى أواسط القرن الثالث عشر الهجرى والتاسع عشر الميلادى كان يقيم فى هذه القرية رجل يدعى عبده خير الدين رزقه الله بسطة فى الجسم وقوة ، ومرانة على الرماية والفروسية له من هيبته وكرمه ونجدته من المكانة والجاه فوق ماكان له من مال وثراء ، وكانت له زوجة تسمى السيدة (جتينة) من حصة شيشير فى مركز (السنطة) بمديرية الغربيه لاتقل عنه فى تلك الفضائل إلا بمقدار مايفترق رجل عن امرأة ، وقد تزوجها — فيما يقال — أثناء هجرته مطارداً من بعض الحكام ويقول بعض النسابين إنها تنتمى إلى بنى عدى الذين يصلون الى عمر بن الخطاب ، فهذان هما والدا الشيخ محمد عبده اللذان نالا من مجده شرفا كبيراً وذكراً خالداً لا أظنهما كانا يحلمان بهما أيام دفعا به الى التعليم وكانت الزراعة عمل هذا الوالد مع أبنائه الآخرين الذين أعقبهم من امرأة ثانية قبل هذه

نذكر منهم حمزه عبده الذى لم ينبه ذكره بعد . فيما نعتقد . إلا على ضوء شهرة أخيه الاستاذ الامام الذى بنى له مجدا ومكانة كسائر أفراد الاسرة . وسترى بعد كيف ظهرت مواهب هذين الوالدين الجسمية والنفسية فى نجلهما محمد فكان له من هيئته وسمو أخلاقه أكبر مساعد على ما نال من نجاح واحترام ، وعلم النفس يعرف للوراثة قيمتها فى تنقل المواهب والصفات من الآباء الى الابناء .

« ٢ » أوليته — فى سنة ١٢٦٦ هجرية و١٨٤٥ ميلادية أواخر حكم محمد على باشا ولد محمد عبده فى بلدة أبيه أو أمه على خلاف بين المؤرخين ، ولكنه على أية حال درج ونشأ فى محلة نصر لايختلف فى هذا أحد ، والظاهر ان هذا الطفل كان أحب أنجال أبيه اليه لوسامته أو مخايله المبكرة فلم يحملاه على سلوك سبيل الفلاحة كأخوته ، بل تركاه مدللا ، لاعبا ، لايكرهانه على الذهاب الى « المكتب » ذلك الذى كان مبغضاً الى أبناء القرى ولا يزال كذلك الى اليوم لعقم الأسلوب التعليمى وأخذ الأطفال بالرهبة والأذى ، فدرج من المهد تحت سماء مصر الصافية وشمسها الساطعة ، وهواءها الطلق ورزقها الموفور ، ينعم بصحة وبسطة فى الخلق ويتغذى من شيم أبويه وآله بما كان أساسا صالحا لمستقبله واستمر كذلك حتى أدرك العاشرة من عمره لم تتعهده يد فقيه أو معلم إلا ماارتسم فى نفسه من مظاهر الحياة الزراعيه القروية الوادعة .. وهنا لم يكن بد من توجيهه الى احدى الناحتين ، الحقول يزرع ويفلح الارض كأخوته وهذا ماكرهه جميعهم له ، « والمكتب » للالمام بالقراءة وحفظ القرآن الكريم وهذه كانت الوسيلة الفذة لراغبى التعليم اذ ذاك ، فاحضر له والده فقيها خاصا لازمه حتى استظهر القرآن فى مدة قصيرة ، ثم أرسله الى الجامع الاحمدى (بطنطا) لتجويد القرآن فأتم ذلك باتقان وسرور ، وهنا تنتهى الحلقة الاولى من تعلمه ، وقد خرج منها يحسن القراءة والكتابة ويتلو القرآن حافظا مجيداً ، فلنذكر منذ الآن ماعسى أن يفيده كتاب الله فى اصلاحه الدينى والأدبى حين نراه فى المستقبل يحاول التحلل من عبث الكتاب وركيك الأساليب الى الكتابة العصرية ثم يتأثر فى حياته الدينية بالقرآن ونصوصه يجد فيها مالم يجده المفسرون من معان علمية طريفة ، ومن ومن مصدر تشريع لانبلية الأيام وما تستحدثه من أحوال

« ٣ » فى طريقه الى المعاهد — وفى سنة ١٢٨١ هجرية وقد بلغ من العمر خمس عشرة سنة حمله آله على طلب العلم فى الجامع الأحمدى بطنطا اتماما لتلك الخطة التعليمية فى ذلك العهد ، والجامع الأحمدى ماهو الافرع من الأزهر يذهب اليه الطلاب الراغبون فى تحصيل العلوم الدينية واللغوية وتمتاز الدراسة اذ ذاك فى تلك المعاهد بدقة البحث وعمقه وكثرة الجدل والمناقشة ولكن العيب الكبير أن تلك الدراسات تكون فى الغالب لفظية أكثر منها موضوعية فلا يستفيد منها الطالب معارف ومسائل تتناسب مع الوقت والجهد اللذين ينفقان فى سبيلها ، كذلك كانت طرق التعليم عقيمة تأخذ الطالب فجأة بما لايعرف من المصطلحات والرموز وقواعد الاعراب فيلقى فى ذلك عناء قد يضطره الى استظهار المسائل دون فقه أو تحقيق والشيوخ يجدون فى صيغ طرقهم وكتبهم بلون من الجلال الكاذب ثم يجبرون الطلاب على تأثرهم معتزين بمكانة موروثة لايعتيهم وافقت العصر أم لا : فلا عجب بعد هذا اذا انصرف هذا الطالب عن هذه السبيل وحاول أن يكون فلاحا كاخوته فقصد الى قريته بعد سنة ونصف تقريبا وتزوج أولى زوجتيه عازما على البقاء بين أهله يعمل عملهم اذ ليست هناك فائدة فى اضاعة عمره فيما لا يجدى . ولكن والده حمله ثانية على العودة إلى الجامع الأحمدى لطالب العلم كأنه تفرس فيه الذكاء والاستعداد للنبوغ فاركبه فرساً مع رجل يوصله الى محطة (ايتاى البارود) حيث يركب القطار الى طنطا ولكنه فر منه وقت الظهيرة فى منتصف الطريق وأخذ يعدو بفرسه الى قرية تسمى (كنيسة أورين) بمديرية البحيرة أيضا وكأنما فر إلى حيث يفتح لنفسه باب العلم الصحيح السهل كما حدث عن نفسه وذلك انه كان فى تلك القرية رجل عالم صوفى مهنته الزراعة يدعى (الشيخ درويش) وهو خال أبيه كان قد ساح فى الأرض ووصل الى طرابلس الغرب فأخذ العلم والطريقة الصوفية عن (السيد محمد المدنى) وعنى بتفسير القرآن وحفظ كتباً فى الحديث أشهرهما (موطأ) الامام مالك

ونتقل لك هنا ماكتبه حسن باشا عاصم فى هذه النقطة عند تأبينه فلما نزل الفقيد ضيفا فى دار الشيخ درويش رحب به وكلفه أن يقرأ له جملا من كتاب

خطى جاء به فأ ، عليه فما زال يلح عليه مع التلطف به حتى قرأ أسطر فلما قرأها اندفع الشيخ يفسرها له ثم عاد اليه يكلفه بالقراءة فيقرأ فيفسر له ثم يتركه يلهو ويلعب مع شبان القرية فما جاء عليه اليوم الخامس الا وقد عشق القراءة ومقت اللعب واللهو وهذا دليل على أن تركه العلم أولا كان لعدم الفهم لالضعف الاستعداد . . . لم يكن ذلك مرغباً له فى العلم والقراءة فقط بل كان مرغبا له فى العمل بالعلم وتربية نفسه وتهذيبها به ، فقد كان ذلك الكتاب مجموعة رسائل كان السيد محمد المدنى أرسلها الى بعض مريديه يأمرهم فيها بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويرغبهم فى تصفية النفس وتحليتها بالكمال ، فسأل الفقيد ـ محمد عبده ـ الشيخ درويشاً عن (طريقتهم) مظهراً له الرغبة فى سلوكها معهم فقال طريقتنا الاسلام قال الفقيد وما هو (وردكم) قال هو القرآن مع الفهم ، والذكر مع الحضور ثم فرض عليه أن يقرأ كل يوم أربعة أرباع مطالبا نفسه بفهمها وكان هو يفهمه مالم يفهم ، فأخذ الفقيد ذلك بجد واجتهاد وانقطع للقراءة والذكر وبعد أسبوعين ذهب إلى طنطا لطلب العلم ففتح عليه حتى كان الطلاب يجتمعون اليه ليطالع لهم الدروس التى يحضرونها وبعد ذلك انتقل الى (الأزهر) نقول أن أسلوب الشيخ درويش فى تربيته هو الأسلوب المفيد المتفق مع طبائع الأطفال لجمعه بين اللهو والتعليم واعتماده على الاشتراك مع الطالب فى المناقشة والفهم ، ثم نسجل آثارها فى نفس محمد عبده من عنايته بالتصوف وعلومه أولا وبتفسير القرآن تفسيراً حراً معقولا ثانيا ثم ما يلابس هذين من كتب الحكمة والمنطق والعلوم الحديثة ثالثا

« ٤ » فى الأزهر — وهذا الجامع انشأه الفاطميون منذ فتحوا مصر وأسسوا القاهرة ليكون مدرسه لتعاليم الشيعة مع دور الحكمة التى قامت لهذا الغرض فاستمر مدة دولتهم تغلب عليه هذه الصبغة الدينية والسياسية معاً ولما أتى الأيوبيون إلى مصر حاربوا هذا المذهب وأقاموا مكانه مذهب السنيين الذى ظل فيه للآن . وأهم العلوم التى عنى بها الأزهر فى تاريخه انما هى علوم الدين واللغة لفهم القرآن والسنة ودراسة العلوم الاسلامية ، وقد دخلت فيه الرياضيات والنجوم وبعض العلوم الكونية تحيا ضئيلة مع تلك ومع ما ناله من

اليسر والعسر فى عصور التاريخ فقد بقى محتفظا بكثير من كتب الادب والدين حتى اذا كان محمد على باشا فاتخذ منه رجال البعوث الى أوربة فساعدوه فى بناء دولته الناشئة أى مساعدة واستمر مدرسة العلم الدينى واللغوى حتى نشأ التعليم المدنى بانيه وكانت مدرسة دار العلوم تتوسط بين هذين النوعين من التربية بجمعها بين العلوم العربية والدينية وبين العلوم الحديثة . وآخر لامر مال العلماء الى انهاض العلوم الحديثة فيه بجانب أختها وكان محمد عبده أظهر رجال هذا الاصلاح كما نحدثك بعد قليل

ففى سنة ١٢٨٢ هـ انتقل محمد عبده الى الازهر فلم يكن رأيه فيه أول الامر خيراً من رأيه فى الجامع الاحمدى من حيث أساليب التدريس وموضوعاته وجمود الشيوخ على ذلك التراث القديم يتوارثون تلاوته دون تنبه الى وجوب تنقيته من الأساطير والاخطاء العلمية ثم التصرف فيه بما يحببه الى الطلاب ويسهله عليهم ويجعله متناسبا مع روح العصر الحديث . فلم يكن من محمد عبده إلا ان بهت من ذلك الجمود واستمر مدة يعالج هذا الدرس ولا يكاد يسوغه ، ان الذى كان يعوقنى عن تفهم الشروح والمتون ثلاثة أمور الاول رغبتى فى ان أكون مثل أخوتى فلاحا وعدم وجود الوسائل التى ترغبنى فى العلم والثانى اختلال نظام التدريس بحيث كنت أسمع الشيخ وهو يدرس فاحسبه يتكلم بلغة أجنبية والثالث ما اتفق عليه الطلبة من مضايقة معلميهم بالاغذية الضارة مما يكون منه اعتلال الجسم والفكر معاً ، وآخر الامر عكفت على نفسه يعالجها بالاناة والصبر تنفيذا لرغبتى أبيه والشيخ درويش الذى عنى بمراقبته وحثه على التعليم كلما صادفه فلانت له المسائل ومهدت السبيل وأخذ يتردد على حلقات التدريس يتعلم النحو والصرف والبلاغة والتفسير والحديث وفقه الامام مالك صاحب (الموطأ) ثم تحول الى فقه الامام أبى حنيفة صاحب المذهب الرسمى للحكومة المصرية الآن ، واستمر نحو أربع سنين ألم فيها بالعلوم الازهرية ، وفهم روح الازهر وما يعالجه من دراسات كل هذا والشيخ درويش يرغبه فى تعلم العلوم الاخرى غير الازهرية كالحساب والهندسة والمنطق والتاريخ وغيرها ، وكان فى الازهر اذ ذاك شيخ معنى بالمنطق والفلسفة الاسلامية هو الشيخ حسن الطويل فلزمه محمد عبده يكمل نفسه بما عنده ويكون خير تلاميذه فهما وتعبيراً ، وربما كان هذا الشيخ أظهر الشيوخ الازهريين

أثرا فى نفس هذا الطالب كما ان الشيخ عبد الكريم سلمان أظهر هم له صداقة ومعونة فيما بعد ، ولم ينس محمد عبده تلك الطريقة الصوفية فبقى متصلا بها فى الازهر يميل الى العزلة أول أمره فلم يكن يكلم أحداً الا لضرورة ثم يعرض مسائل الصوفية على الشيخ درويش مدة العطلة الازهرية وكان هذا ينتظره فى قريته (محلة نصر) يدارسه القرآن والعلم ويحاسبه عما حصل طول العام

* * *

وفى سنة ١٢٨٨ هـ : ١٨٧١ م حضر الى مصر فيلسوف الشرق والاسلام الاستاذ الحكيم السيد جمال الدين الافغانى أستاذ المترجم الفذ وصاحب اليد فى طبعه بطابعه الناطق ذكاء وحكمة ، وحرية وجرأة ، وتضحية وبلاغة .

ينتسب جمال الدين الى الحسين بن على بن أبى طالب وقد نشأ فى بلاد الافغان نشأة علمية نادرة فألم فى بلاده وفى الهند بالعلوم اللغوية والاسلامية والتاريخ والادب وعلوم الطبيعة والرياضة والطب والتشريح وغيرها وتقلب فى عدة مناصب ببلاده حتى وصل الى درجة الوزير الاول ، ولكن الشئون السياسية اضطرته الى هجرة بلاده فذهب الى الهند وكانت ثائرة فى وجه انجلترة فأمرته هذه بمغادرتها خوف اتصاله بالثائرين وحملته على احدى سفنها الى السويس فجاء مصر ومكث بها أربعين يوما تردد فيها على الازهر وخالط كثيراً من طلبة العلم السوريين وألقى عليهم محاضرات فى مسكنه ثم قصد الى بلاد الحجاز للحج وتعرف تلك البلاد وقصد الاستانة سنة ١٨٧٠ م وكانت شهرته قد سبقته الى هناك فجمعت حوله قلوب الأمراء والوزراء ورجال العلم والأدب حتى عين بعد قليل عضواً فى مجلس المعارف وأستاذاً فى الجامعة ، فابتدأ ينشر تعاليمه التى تتخلص فى التوفيق بين الاسلام والمدنية والرجوع إلى المصادر الأولى للتشريع الاسلامى وشرحها شرحاً معقولا خاليا من الخرافات والأساطير ثم الميل إلى تحرير الفكر والعناية بالعلوم الفلسفية واصلاح الأساليب العربية والسهر على حياة الشرق حياة حرة دستورية ناهضة ، فلم ترق تلك الاغراض فى نظر شيخ الاسلام بتركيا (حسن أفندى فهمى) حتى أثار عليه الخواطر واضطره الى ترك الاستانة فنزل مصر سنة ١٨٧١ م أيام اسماعيل باشا فما عرفت ، فرحب به رياض

باشا وشجعه كما شجع تلميذه بعد (محمد عبده) وكانت مدة اقامته مصر سلسلة أزمات سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية بسبب اسراف اسماعيل وضعف توفيق ولا بدا من التصادم بين القديم والحديث وبسبب الدسائس السياسية وتدخل الاجانب ، فكان جمال الدين من رجال هذه الساعة التف حوله الناشئون وطلبه العلم يدرس لهم فى بيته الأدب والمنطق والتوحيد والفلسفة والتصوف وأصول الفقه والفلك بأسلوب فيه طريف وكان محمد عبده الزم هؤلاء طلبة له وأحرصهم على الافادة منه وأحبهم اليه ، فربى السيد الافغانى طبقة من المتعلمين حملوا لواء النهضة الادبية والسياسية والعقلية الى وقتنا هـــذا وكان يحملهم على الكتابة فى الصحف والخطابة فى المنتديات متناولين السياسة والاجتماع والآداب حتى خافت الحكومة خطره فحمله توفيق على ترك مصر لان سياسته أغضبت انجلترة وفلسفته أحفظت عليه الجامدين من العلماء الازهريين ، فقصد الهند فاوربا حيث وافاه تلميذه البار محمد عبده . . ولنقف هنا حتى نصل بالمترجم الى باريس . . وكان جمال الدين لحدة طبعه يرى أن خير وسيلة للاصلاح انما هى الحكومة تفرضه فرضا على الشعوب ليكون الزم واسرع ولكن محمد عبده كان يرى التربية واعداد الامة للاصلاح خير وسيلة قويمة ثابتة ، وعندنا أن الرأى الثانى اصوب فهناك فرق كبير بين فرض الامور فرضاً على الأمة دون استعداد لها ، وبين اعداد وتثقيفها حتى تشعر بحاجتها الى الاصلاح وتطلبه لنفسها فى شغف واشتياق ، وأحرى بالامم فى الحالة الاولى أن تنتقض وتثور وتهدم فى طرفة عين ما بنته الحكومه على غير أساس كما حدث فى الشرق هذه الايام

* * *

كان محمد عبده طالبا فى الأزهر حين قدوم استاده هذا ففتن به ولزمه وأخذ عنه كل مبادئه واغراضه وتلقى عنه المعارف وعرف كل منهما بصاحبه فلا يذكر احدهما حتى يذكر الآخر ، وقد صادفت تعاليم الأفغانى من نفس هـــذا الطالب ارضاً خصيبة مستعدة فأثمرت ايما اثمار فأخذ وهو طالب يقرأ دروسا فى الأزهر على أسلوب استاذه موضوعها التوحيد والمنطق والحكمة والفلسفة يؤمها الجم الغفير فيرون كتباً جديدة وأسلوباً جديداً فيه بلاغة وحرية فكر وهنا ظهر الاصطدام

بين المذهبين مذهب الازهر القديم يمثله الشيخ عليش ، ومذهب محمد عبده واستاذه يجهر به هذا الطالب موفقا قادراً يبهر به الناس حتى ظهرت له مؤلفات ورسائل ومقالات صحفية لفتت اليه الانظار ولاقت معارضة وتشهيرا من كل الطبقات النابهة ولاسيما خارج الأزهر أما المؤلفات فلست بحاجة إلى اخبارك أنها فى التصوف والتوحيد ممزوجين بالحكمة والفلسفة والمنطق ، كرسالة الواردات وحاشيته على العقائد فى التوحيد وتلخيص محاضرات أستاذه فى التربية ورجالها والصناعة وحث الناس عليها وتجد قسما من ذلك أول الجزء الثانى من تاريخه تلمس فيه الأسلوب العلمى الفلسفى الذى يعيد اليك أسلوب ابن سينا فى اشاراته والغزالى فى الاحياء وأدب الدنيا والدين للماوردى وكتب المنطق والحكمة فى شىء من التصرف والتسهيل

وأما المقالات فقد كتبها فى صحيفة الأهرام التى رحبت به كل ترحيب وموضوعها دينى وأدبى واجتماعى ودعوة إلى ادخال العلوم العصريه بالأزهر وغير ذلك ، من ذلك مابدأ به أولى مقالاته يقرظ الاهرام « انه لما نظر لدى كل قاص ودان واشتهر بين بنى نوع الانسان أن مملكة مصر كانت فى سالف الزمان مملكة من أشهر الممالك وكعبة يؤمها كل سالك وناسك إذ كانت قد اختصت بتربية العلوم وبث المعارف المتعلقة بالخصوص والعموم ... الخ » وما كتبه تحت عنوان الكتابة والقلم « ان مما انبسطت به أيدى الضرورات وأنتجته مقدمات الحاجات انشاء لسان القلم نائباً عن المتكلم فيما يتكلم وذلك أنه لما اقتضى النظام الآلهى أن يخلق الانسان محتاجا فى أن يقوم بدنه مدة مامع حد ما من الراحة إلى أن يتخذ مما خلق الله له فى الارض ما لم يكن حاصلا وان يكون منه مالم يكن كائنا . . . الخ » وما كتبه فى العلوم الكلامية والعلوم العصرية « كلما تناسينا عهد جاهلية العرب وماكان من مقتضيات الجهالة فى تلك الحقب ومنينا أنفسنا بأننا صرنا فى نشأة أخرى وتقدمنا الى الكمال بعد أن كنا الى القهقرى واستصحبنا بمصباح الآمال فى ليل الضلالة والاختلال وهمت أفكارنا بتحصيل ماسبقنا اليه غيرنا تذكرنا حوادث الأيام بأننا لازلنا فى أول نقطة من ذلك الزمن الأول بل كان ذلك على تنزل منه الى أسفل وتثنى ، مالنا عن تقدم أهالى أوطاننا ، فمن أعجب مارأيناه

فى هذه الأيام أن بعض طلبة العلم الكرام الذين قد بذلوا جهدهم فى التحصيل وخلعوا ثياب أوزار البطالة والتعطيل واقتدوا براحتهم لتنوير بصيرتهم قد تحركت الى المعالى همته ودعته الى التفنن غيرته فأخذ فى دراسة بعض الكتب المنطقية والكلامية التى كان قد صنفها بعض افاضل الملة الاسلامية لما انه قد علم كما هو الواقع أن العلوم المنطقية انما وضعت لتقويم البراهين وتمييز الافكار غثها من السمين . . الخ ، وقوله تحت عنوان المدبر الانسانى والمدبر العقلى الروحانى « أنتم يامعشر الشرقين أبناء وطن واحد متشاركون فى المنافع والمضار وسائر المقاصد لا يس أحدكم خير إلا نال الآخر منه مثل مانال صاحبه ولا توجه اليه خير إلا وهوالى الآخر يتعاقبه فما لهممكم تضاءلت وخطبائكم تمثلت :

فالقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالاياب المسافر

ولم تخاطبوا عدوكم من صميم فؤادكم

محا السيف أسطار البلاغة وانتحى « اليك ليوث الغاب من كل جانب . . . الخ من هذه الفقرات نستطيع أن نشخص اسلوب محمد عبده فى هذا الطور الذى يمتاز بالسجع الشائع فى هذه الفترة وكان عبد الله فكرى من الظاهرين به ، وكذلك تكلف الاسلوب العلمى المنطق لتأثره بتلك الكتب التى درسها ثم ظهور كثير من المصطلحات العلمية فى كلامة مثل المفهوم والمنطوق والخصوص والعموم وغيرها ومعنى هذا أن اسلوبه اسلوب فلسفى منطق يسلك مسالك المناطقة فى فى الجدل والبرهان متأثراً فى ذلك بحياته الدراسية السالفة ، وكان اذ ذاك فى العقد الثالث من عمره .

فلما بلغ الثامنة والعشرين تقدم لامتحان (العالمية) فنالها سنة ١٢٩٤ هـ بعد تلكؤ العلماء وتبرمهم به لعلمهم نزعته التجديدية وتأثره جمال الدين ، وكلاهما ثائر فى وجه الجمود داع الى حرية الفكر والاعتراف (بالشخصية) وعدم الفناء فى السابقين وان كانوا مخطئين . . . . وهنا ينتهى طور طلبه العلم بالازهر الشريف « ٥ » أعماله الاولى — لما نال محمد عبده « درجة العالمية » من الازهر الشريف وكان ممتاز المواهب العقلية واللسانية عهد اليه دراسة التاريخ بمدرسة « دار العلوم »

مع دراسة اللغة العربية فى مدرسة الألسن ، وكانا المدرستين من منشآت العصر الحديث تعنى الثانية بدراسة اللغات الاجنبية ليكون خريجوها صلة مصر بغيرها سياسياً وعلميا وحضارة ، والاولى انما اعدت لتتوسط بين التعليم الأزهرى والتعليم المدنى الحديث وكان يحبها الاستاذ الامام ويبغى من ورائها من الاصلاح ماعجز عنه الازهر وأهلوه حتى إنه لما أسند اليه القضاء بعد نفيه أعرض عنه طالباً التدريس فى هذه المدرسة ، قائلا انما خلقت للتدريس ، والحق أن هذه المدرسة أيامها الأولى كانت أداة اصلاح أدبى ودينى ومدنى نافع فقد نقلت الامة من عصر الموت والجمود واعدتها لتلقى أسباب الحضارة الحديثة ولاسيما مايلابس اللغة وآدابها ، وكان الاستاذ يعنى فى دار العلوم بدراسة « مقدمة ابن خلدون » التى صدر بها تاريخه المشهور ، وتمتاز هذه المقدمة بين ماكتب فى عصرها بأسلوبها المرسل حينما كان الكتاب مفتونين بالسجع والبديعيات الى درجة أضاعة المعنى لاجل البهرج اللفظى ، كما تمتاز بمباحثها العمرانية والاجتماعية والتاريخيه مع ميل شديد الى النقض والتمحيص حتى اعتبر ابن خلدون واضع علمى الاجتماع والعمران بما خطه فى هذه المقدمة من الفصول وعليها اعتمد كثير من كتاب النهضة الحديثة واتخذوها أساس ثقافتهم موضوعا واسلوبا ، فكان استاذنا يسلك فى درسها مسلك الامام المجتهد فى هذين العلمين حتى بعد طلبته بيننا من النابهين بالنسبة لسواهم .

استمر الاستاذ يدرس فى هذة المدرسة وهو على صلة وثيقة باستاذه جمال الدين الافغانى حتى اذا اضطر جمال الدين الى مغادرة البلاد كما قدمنا حملت الحكومة محمداً عبده على مغادرة وظيفته الى قريته لايبرحها خوف تأثيره فى البيئات الناهضة فى وجه السياسة الخرقاء اذ ذاك فلم يكن من الشيخ الا أن ربض فى (محلة نصر) يرقب الحوادث عن كثب سنة ١٢٩٦ للهجرة ، أول حكومة توفيق الضعيفة ووزارة شريف الذى أراد تشجيع « مجلس شورى النواب » فابى عليه الخديو طوعا لمندوبى فرنسا وانجلترا كما شرح ذلك محمد عبده فى « مذكراته » ولما استقالت وزارة شريف وأعقبتها وزارة رياض وكان هذا ميالا الى محمد عبده ونهضته الفكرية سعى فى اصدار العفو عنه سنة ١٢٩٧ هـ ليكون « محرر » الجريدة الرسمية وهى « الوقائع المصرية » التى انشئت منذ عهد محمد على فاتخذها الاستاذ وسيلة

اصلاح حكومى وشعبى معاً ، ونذكر هنا ماكان لدراسة الاستاذ فى دار العلوم وما قرأ من كتب أدبية واجتماعية من آثار فى اسلوبه الكتابى وفى الموضوعات التى عالجها فى هذا العهد وأهمها ماكتب فى الصحيفة الرسمية (٩٧ - ٩٨ هـ)

وكانت صحف أخرى تصدر فى القاهرة كالاهرام وروضة المدارس ونزهة الافكار والمؤيد ووادى النيل القديمة وغيرها ، ولما ولى تحرير الوقائع رغب اليه رياض فى وضع قانون للمطبوعات ففعل ، وكان من أحكام ذلك القانون أنه يجب على جميع مصالح الحكومة أخبار قلم المطبوعات بأعمالها وأحكامها ومشروعاتها وان لرئيس التحرير حق انتقاد ما يراه معوجا منها كما أن له حق مراقبة الصحف الاخرى التى ألزمها نشر مقالات فى التربية والآداب والتدبير فصار الأستاذ بذلك مسيطراً على عمال الحكومة ، ومربيا للأمة ينقد الحكومة فى صحيفة الحكومة فسلك بالوقائع المصرية مسلكا حديثاً واتخذها أداة اصلاح اجتماعى وسياسى وأدبى ينشر فيها مقالاته التى كان يود اذاعتها فى المدارس أو الكتب أو الصحف الاخرى من ذلك ما كتبه تحت عنوان احترام قوانين الحكومة « انما تسعد البلاد ويستقيم حالها اذا ارتفع فيها شأن القانون وعلا قدره واحترمه الحاكمون قبل المحكومين واستعملوا غاية الدقة فى فهم فصوله وحدوده والوقوف على حقائق مغزاه ، وسهروا لتطبيق أعمالهم جزئية وكلية على منطوقه الحقيقى ومفهومه عند ذلك تحيا البلاد حياة حقيقية ويسرى فيها روح السعادة . . . وليس يكفى فى راحة العباد وانتظام المملكة أن توضع القوانين مادية لكليات الأمور وجزئياتها ثم تهمل من النظر وتطرح عن الفكر ويستمر كل ذى عمل فى عمله يتبع فيه رأى نفسه الخ » وماكتبه تحت عنوان ما أكثر القول وما أقل العمل « ان من أخس الصفات وأدناها أن يقول الانسان ما لا يفعل وان يدل غيره على ما ضل هو عنه وأن يعيب على الناس مالا يعيبه هو على نفسه وذلك أن من كانت هذه صفاته فهو جاهل من وجه ومعترف بنقصه من وجه آخر وخبيث المقصد ودنىء الهمة من الوجه الثالث . . . الخ » وهذا مما كتبه تحت عنوان خطأ العقلاء مما يمس أولى الأمر « تولى أمر هذه البلاد المصرية أناس فى أزمنة مختلفة تظاهر كل منهم بأنه يريد

تقدمها ونقلها من حالة الهمجية (على ما يزعم) الى حالة التمدن التى عليها أبناء الامم المتمدنة وجعلوا الوسيلة الى ذلك أن تنقل عادات أولئك الأمم المتمدنين وأفكارهم وأطوارهم الى هذه البلاد وظنوا أن تقليدنا لعاداتهم وأخذنا الآن بأفكارهم اليومية وتشبهنا بهم فى الأطوار كاف فى أن نكون مثلهم وان استلامنا لتلك العادات وتلقينا لتلك الافكار أمر غير عسير . . . » وما كتبه بعنوان الشورى والقانون « ان القانون الصادر عن الرأى العام هو الحقيق باسم القانون المقصود بالبيان ليس الا . وبيانه أن الاجتماع بين أمة من الناس فى مبدأ أمره لا يكون له داعية سوى الصدفة أو أسباب أخرى قهرية لا تخرج عن الطوارق التى تلم بالانسان فتلجئه الى ملجأ من نوعه يستعين به على دفعها فاذا استتب الاجتماع وسكن الأمن فى قلوب المجتمعين وانقطع كل منهم فى الاسباب التى توصله الى لوازم المعيشة نزع فيهم حب المسابقة فى كل ما يتنافس فيه كل حى وتولد من ذلك شدة الطمع والشره وجر الأمر الى الحسد والبغض وان استعداد الناس لان ينهجوا المنهج الشورى غير متوقف على أن يكونوا متدربين فى البحث والنظر على أصول الجدل المقررة لدى أهله . . . الخ »

فنرى من هذه الفقرات وغيرها ان الاستاذ فى هذا الطور العملى قد امتاز معنى وموضوعا واسلوبا ، فترك السجع الى الارسال وتحلل من المصطلحات العلمية والتعابير المنطقية الى حد كبير ، وسلك بأسلوبه سبيلا أدبياً اجتماعيا لاتظهر فيه أساليب القدماء كثيراً ، واما موضوعاته فغلبت عليها النواحى الاجتماعية والسياسية والخلقية والاقتصادية ثم الدينية أيضا وتبع ذلك تجدد معانيه بوحى تلك الموضوعات وتجارب الحياة

ولاشك أن ذلك يعود الى اتصاله بالكتب الادبية مدرسا وقارئاً فعلا أسلوبه ثم اتصاله بحياة الشعب وتعليمه وسياسة الحكومة وأعمالها ففتحت أمامه مناحى القول والكتابة فصارت آثاره تتناول الحياة من جميع جهاتها متأثراً فى كل ذلك بغيرة دينية وطنية يستشهد كثيرا بآى القرآن والحديث وحكم السابقين وأشعارهم ، يحرص على هذا الاصلاح والسير به الى الأمام فى دائرة سلمية قانونية حتى كانت الثورة العرابية

« ٦ » الثورة العرابية — كان الاستاذ فى منتصف الحلقة الرابعة من عمره حين بدت مقدمات الثورة العرابية ، وأساسها الاصلى إنما هو التدخل الأجنبى الذى أفضى الى انقاص الجيش والى الامتيازات وشل الحياة النيابية وكثره الضرائب والعبث بالحياة السياسية والاجتماعية فى مصر ومعارضة أمانى البلاد التى ولدتها النهضة الفكرية الحديثة على يد جمال الدين وتلاميذه وأشهرهم محمد عبده الذى يعد من أنصار فكرة الاصلاح البطىء الثابت وأعداد الامة لقبول المدنية الحديثة فاخذ يصلح العادات ويحارب الخرافات وينقى الدين من الاساطير « وبهذا وماسبقه تنبهت الافكار وبدأت الحياة الاجتماعية تدب فى جسم أمة مزقها الظلم وانبعثت النفوس تطلب ماشعرت به من حاجاتها فتألفت بعض الجمعيات الخيرية إسلامية وقبطية لمساعدة الفقراء بالمعونة المادية واولادهم بالتربية ولم يكن يسمع بمثل ذلك فى مصر من قبل . . . ولكن حال دون بلوغ تلك الامانى أمور منها منشأه رياض باشا نفسه وبعض النظار ، ومنها ماله علاقة بالجناب الخديوى ، ومنها ماسببه امتداد السلطة الأجنبية الجديدة ومنها نهوض الساخطين لاستعمال ماوجدوا فى ذلك من الوسائل لاثارة الفتن وقلب وزارة رياض باشا « فلما قوى النفوذ الأجنبى وتسرب الخلل الى الجيش لاختلاف عناصره وعدم المساواة بينها وشلت الحياة النيابية ظهر عرابى وانصاره وطلبوا من توفيق باشا وضع حد لهذه الأعاجيب ، ولكن المسألة كانت متأثرة بالنفوذ الانجليزى الفرنسى كثيراً بحجة الديون المصرية ومراقبتهما الثنائية ، ثم ابعاد مسافة الخلف بين العرابيين والخديوى نفسه وضمانهما حمايته لأنه مثال السلطة الشرعية الوحيدة ، فطلبت الدولتان ابعاد عرابى ولكنه ثار وجمع الجيوش للقاء الاساطيل والجيوش الفرنسية والانجليزية وكان من ذلك حرب انتهت بالاحتلال الانجليزى كما هو معروف

وكان موقف محمد عبده من العرابيين موقف المستشار الناصح لهم بالاعتدال وعدم الالتجاء الى العنف أمام دولتين قويتين ولكن الثورة جمحت بأصحابها الأسباب شتى الى تلك الغاية المشئومة ولم ينجح محمد عبده فى حمل أصحابه على الاعتدال والأناة وآخر الامر حوكم أنصار الثورة وابعد منهم كثير واتهم هذا الشيخ بالتأليب وحكم عليه بالنفى ثلاث سنين وثلاثة اشهر فى حين انه لقى من العرابيين العنت فى دعوتهم

الى الاعتدال حتى هدوه بالقتل صبراً ، وكان الاستاذ يرى فى هذا الثورة قضاء على ذلك الاصلاح الذى حاوله وأخذ يقيم اصوله ، وان كان على أية حال عدو الاحتلال والنفوذ الأجنبى .

أودع محمد عبده السجن بالقاهرة تمهيداً لمحاكمته فكتب الى أحد أصحابه رسالة منها هذه الفقرات :

« تقلدتنى الليالى وهى مدبرة كأننى صارم فى كف منهزم

هذه حالتى ، اشتد ظلام الفتن حتى تجسم بل تحجر ، فأخذت صخوره من مركز الأرض الى المحيط الاعلى واعترضت مابين المشرق والمغرب وامتدت الى القطبين فاستحجرت فى طبقاتها طباع الناس إذ تغلبت طبيعتها على المواد الحيوانية أو الانسانيه فاصبحت قلوب الثقلين كالحجارة أو أشد قسوة فتبارك الله أقدر الخالقين ، . . . رأيت نفسى اليوم فى مهمه لايأتى البصر على أطرافه ، فى ليلة داجية غطى فيها وجه السما . بغمام سوء فتكاثف ركاما لاأرى ركاما انسانا ولااسمع ناطقا ولا أتوهم مجيبا اسمع ذئابا تعوى وسباعا تزأر وكلابا تنبح ، كلها يطلب فريسة واحدة هى ذات الكاتب . ذهب ذوو السلطة فى بحور الحوادث الماضيه يغوصون لطلب اصداف من الشبه ومقذوفات من التهم وسواقط من اللمم ليموهوها بمياه السفسطه ويغشوها بأغشية من معادن القوة ليبرزوها فى معرض السطوة ويغشوا بها اعين الناظرين . . . قدم فلان وفلان تقريرين جعلا فيهما تبعات الحوادث الماضيه على عنق ولم يتركا شيئا من التخريف الا قالاه وذكرا اسماءكم فى امور أنتم جميعاً أبعد الناس عنها . . . آه ، ماأطيب هذا القلب الذى يملى هذه الاحرف ، ماأشد حفظه للولاء ، ماأغيره على حقوق الاولياء ، ماأثبته على الوفاء . . هذا القلب الذى يؤلمونه باكاذيبهم هو الذى سرقلوبهم بالترقية وملأها فرحا بالتقدم ، ترى من هذه الكلمات فداحة الخطب وخيانة الصحب ، والأسف على هذه الامة تتردى فى هاويات النفاق والأكاذيب وان لم يبرأ الاستاذ فى أسلوبه من التكلف اللفظى ، وتزاحم معانيه التمثيلية ومصطلحاته العلمية .

« ٧ » فى المنفى — كان عهد النفى للاستاذ محمد عبده حلقة جديدة حقا ، متنوعة الوسائل ، خصيبة النتائج ، جمة الفوائد ، غادر بها وطنه الخاص ، الى وطنه العام

ولم يعد متأثراً بالروح المصرية أو الشرقية فقط ، بل اتصل بحياة غربية قوية فى فرنسة حيث التقى ثانية باستاذه السيد جمال الدين الافغانى الذى كان إبان الثورة العرابية فى الهند فابقته انجلترة هناك مراقباً لئلا يتصل بالعرابيين حتى اذا انتهت هذه الثورة سمحت له بالتوجة كيف شاء فقصد الى لندن وكتب وهو مارٌ ببور- سعيد الى محمد عبده يخبره بذهابه الى انجلترة ويطلب اليه الرد بعنوان جريدة الشرق والغرب أو «المستر بلانت» صديق السيد الافغانى ، فمكث هذا فى لندن مدة ثم انحدر الى باريس سنة ١٨٨٣م وفى آخر هذه السنة وافاه محمد عبده هناك حيث اتحدا على اللقاء .

غادر محمد عبده مصر الى سوريا (بيروت) واستقر هناك نحو سنة ، ولم يكد يصل اليها حتى وافته رسائل شتى من المخلصين له يذكرونه بالصبر والاحتمال حتى تنقشع هذه المحنة فكان يرد عليهم شاكراً لهم ولمن اكرموا وفادته من السوريين وغيرهم ، وقد كتب الى السيد جمال الدين عقب هذا النفى رسالة منها «أوتيت من لدنك حكمة أقلب بها القلوب ، واعقل العقول ، وأذل بها شوامخ المصاعب واتصرف بها فى خواطر النفوس ومنحت من لدنك عزمة اتعتع بها الثوابت واصدع بها شم المشاكل ، وأثبت بها فى الحق حتى يرضى الحق ... وما حكم به سيدى على المصريين من سلب الوفاء فذلك قد تتصافر عليه الادلة وتشهد لك ولنا به الحوادث غير أننا لسنا اولئك فقد اخرجتنا عن طباعنا وحولتنا نبتاً غريباً لا يغتذى بغذاء تلك الأرض ولا ينمو بهوائها ، وانما ينضر حيث يتيح له القدر من مثل عناصره مايقوى به قوامه ويزهر زهره ويحلو ثمره والا ذبل ومات واستؤصلت جذوره ونفى الى خارج البلاد» وكتب كذلك من بيروت جوابا عن كتاب لصديق «لك فى قلوبنا من الود مايذكيه سناؤك ، وفى مناطقنا من الحمد مايوحيه كمالك وفى صدورنا من الاجلال مايرفعه بهاؤك ، مابيننا من المودة لاتحده مدة ولا تخلق له جدة . نعيذه من حاجة للتجديد ، واستدعاء للمزيد فلا المواصلة تربيه ، ولا المماهلة توهيه . نعم ان مانحفظ لك فى الانفس هو تحلى فضلك ، ومثالا علائك ونبلك وذلك الخالد بخلود الارواح ، الباقى فى تفانى الاشباح ... الخ» تلاحظ فى هذه الرسائل حرارة صادقة ، وتأثراً بالموقف الجديد ، وحسن مصانعة الايام ومصابرتها

ويظهر أن هذه الفترة الاولى فى سورية قضاها الاستاذ بين درس وتحصيل ، وربما فى درس اللغة الفرنسية أيضا ، ولكنه على كل حال كان متصلا بحوادث مصر علما وخبرة وكذلك بحوادث الشرق ، وبآثار وأخبار جمال الدين الافغانى

ولما انحدر جمال الدين الى باريس معتزما انشاء صحيفة (العروة الوثقى) كتب الى محمد عبده يطلب اليه لقاءه هناك ليضم جهده الى جهده فى خدمة الشرق فلم يكن من استاذنا الا تلبية هذه الدعوة فشخص الى فرنسا فباريس حيث قى استاذه وهناك أصدرا صحيفتهما

وقد عثرنا على مجموعة لهذه الصحيفة (العروة الوثقى) التى لم يطل عمرها أكثر من ثمانية أشهر ، فاذا هى تمثل تلك النواحى الت شغلت فكر هذين الاستاذين ذلك العهد ، فناحية سياسية تتعلق بتصرف انجلترا وفرنسة فى الشرق ، ثم بتفرد انجلترة فى شئون مصر عقب هذا الاحتلال ، وتطاول أيدى الانجليز الى السودان ومنابع النيل والحبشة ، ثم تصرف اوربة فى الشئون الشرقية ولاسيما الهند وافغانستان وبلاد الفرس وتركيا والمغرب ولا شك أن المسألة المصرية شغلت فى ذلك فراغا كبيراً وناحية دينية ترمى الى صلة الدين بالعلم ، وتحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الاسلام على طريقة السلف قبل تشويهه بالبدع والاساطير ، ثم تكوين وحدة اسلامية يتعاون بها المسلمون فى تقويم شئونهم السياسية والاجتماعية ، وناحية اجتماعية تتناول الاخلاق والعادات والعمل على ايقاظ الشرق وبث روح الحمية والغيرة فى نواحيه بشتى الوسائل علّه يتدارك مافاته ويهب فى وجه الاستعمار الاوربى وقد جاهدا فى ذلك مخلصين وإن لم يشهدا ثمار جدهما فى الحياة

وقد تيسرت للاستاذ الامام فى « باريس » وسائل جديدة فتحت أمامه أبوابا شتى للافادة والاستفادة منها اطلاعه على تلك الحياة الفرنسية الجميلة النشيطة التى حدثناك عنها ، ومنها دراسته اللغة الفرنسية واتصاله بمعارف حديثة غربية أو متعلقة بالشرق والاسلام فكان يناقشها فى صحيفته محبذاً أو ناقداً دافعاً ، ومنها تعرفه بجماعة من رجال فرنسة المشهورين أمثال رينان وهانوتو وله ولاستاذه معهما مناقشات معروفة حول الشرق والاسلام ، ومنها تلك الحرية التى يشعر بها كل من هبط فرنسة من المجاهدين السياسيين ومنها اشتراكه مع جمال الدين فى هذا

الصحيفة ، فهذا يفكر ويدبر واستاذنا يشاركه ثم يحرر ويذيع وقد كان لتلك الوسائل نتائجها فيما قدمنا لك من النواحي ، وفي المعاني التي تجددت بتجدد تلك الموضوعات وفي حرية الاسلوب وتخلصه من التكلف الذي رأيته في عهده الازهري وفي كتابته « بالوقائع المصرية » وهذا من مقتضيات الصحافة وحاجتها الى السرعة ولا سيما مقالاتها المترجمة وأخبارها السياسية والعلمية والبرقية . . . والحق أنا لا نستطيع هنا تصوير هذه الحلقة من تاريخ الاستاذ الامام باكثر من هذا الايجاز ، ومن يقرأ الصحيفة نفسها يمكنه الالمام بميزاتها ومناحيها . إلا أنا ننقل هنا نتفاً من محتوياتها تقرب لك صورتها فما كتبه بعنوان الشرف « كلمة يهتف بها اقوام مختلفة من الناس إلا أن أكثرهم عن حقيقة معناها غافلون . فئة ترى الشرف في تشييد القصور والتعالي في البنيان وزخرفة الحوائط والجدران ، ووفرة الخدم والحشم واقتناء الجياد وركوب العربات وفئة اخرى تتوهم أن الشرف في لبس الفاخر من الثياب والتزين بألوان الالبسة وأنواعها . والتحلي بحلى الجواهر الثمينة . . . نحن نرى هذه الأوهام قائمة مقام الحقائق في أذهان كثير من الناس ولكن لانظنها طمست عين الحق فيه حتى عموا عن ادراك خطئهم وانحرافهم عن الصواب في وهمهم ، ماذا يجد من نفسه المباهي بقصوره وولدانه ؟ ألا يحس من نفسه أنه وإن حاز منها أعلى مايتصوره العقل فذاته التي هي أعز لديه من جميع ما كسب لم تستفد شيئاً من الكمال وأن جميع ماحصله فهو اجنبي عنه وليس له نسبة اليه الا نسبة العلاء في تحصيله . . . الخ ، ثم يكتب تحت عنوان انحطاط المسلمين وسكونهم وسبب ذلك « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، إن للمسلمين شدة في دينهم وقوة في ايمانهم وثباتا على يقينهم يباهون بها من عاداهم من الملل وان في عقيدتهم أوثق الاسباب لارتباط بعضهم ببعض ومما رسخ في نفوسهم ان في الايمان بالله وما جاء به نبيه صلى الله عليه وسلم كفالة لسعادة الدارين ومن حرم الايمان فقد حرم السعادتين . . . المسلمون بحكم شريعتهم ونصوصها الصريحة مطالبون عند الله بالمحافظة على مايدخل في ولايتهم من البلدان وظلهم مأمور بذلك لافرق بين قريبهم وبعيدهم ولا بين المتحدين في الجنس ولا المختلفين فيه وهو فرض عين على كل واحد ان لم يقم قوم بالحماية عن حوزتهم كان على الجميع أعظم الآثام . . . »

وقد كتب بعنوان العدالة الانجليزية مقالا منه « الركون الى العدالة والسكون الى الأمن من الامور الطبيعية فى الانسان وهذه حقيقة أدركها الجنس الانجليزى الشريف . لهذا تراه يجوب الاقطار ويتقلب فى الامصار حاملا على واحد عاتقيه علم العدالة وعلى العاتق الآخر لواء الامن والراحة رجاء أن يملك اهواء العالم اجمعين وينال الكرامة فى جميع انحاء المعمورة الا أنا نعجب غاية العجب لجفلة الناس من ألوان هذه الاعلام وفزعهم من الاستظلال بظلها ومن تفيأه يوما فزع للانتباذ عنه فى آخر ولو لفحه لهيب جهنم . هؤلاء الارلنديون من جنس الانجليز وعلى دينهم وينطقون بلغتهم ولا يوجد بينهم وبين سكان بريطانيا العظمى فرق الافيما لا يعد الاختلاف فيه خلافا حقيقياً من عقائد المذهب الكاثوليكى والبروتستنتى ويصح أن يقال انه خلاف فى فروع الدين لا فى اصوله وجزيرة ايرلنده تعد جزءاً أصلياً من مملكة بريطانيا وسكانها يعدون عنصراً داخلا فى قوام الامة وعليهم بسط جناح الرحمة الانجليزية من اجيال طويلة حتى حسب الجميع امة واحدة ومع ذلك ترى آلافا مؤلفة من الارلنديين يهجرون أوطانهم ويهاجرون الى امريكة ويتخذونها سكنا لهم فراراً من عدالة الانجليز ، وفى كل يوم ترى المحترقين بنيران الحمية منهم يخاطرون بأنفسهم فى أعمال يقصدون بها هدم السلطة الانجليزية واهلاك القائمين بها . . . هل جلاء الارلنديين وتهافتهم على الموت وسآمتهم من الحياة فى معاندة السلطة الانجليزية ناشىء عن نفرتهم من العدل وكراهتهم للراحة والميل اليهما طبيعى فى فطرة البشر ؟ أظن لو كان عدلا حقيقياً يعرفه بنو الانسان لما نبت عنه الطباع . . . أن كان هذا العدل لا يوافق اذواق المتفقين معهم فى الجامعات السابقة فكيف ترجى ملاءمته لاذواق الذين لا نسبة بينهم وبينهم ولا صلة تجمعهم معهم لا فى لغة ولا جنس ولا دين ؟ هذا النوع البهيج من العدل ظهرت له آثار فى البلاد الهندية . . . . ومن سنتين دخلوا مصر وهى أرض الراحة والسلام واهلوها فى رغد من العيش وأمن من الغوائل فاذا هى اليوم ببركة العدل الانكليزى وحسن الادارة البريطانية ارض الفتن ومجالات الحروب ومضارب الخلل والفساد ومع كل هذا ترى الانجليز لا تأخذهم ريبة فى أنهم عادلون قوامون بالقسط وأن حلولهم فى أى قطر وسلطتهم على أى شعب مقرونة بالسعادة والرفاهة والا من

والراحة . . . . جاء فى رسالة تلغرافية من مكاتب التيمس فى القاهرة ان العساكر الانكليزية انتشرت فى شوارع القاهرة شاكية السلاح لتعزيز قوة المحافظين ، والحامل على ذلك ماتأكد عند حفاظ العدل من الانكليز أن فى تلك المدينة جمعيات جهرية أو سرية أو أن فيها أشخاصاً مصريين يحبون بلادهم ولا يودون أن يكون السلطان فى حكومتها لاجنبي عنهم . . . . الخ »

وأظنك لاتعجب بعد هذه الفقرات اذا علمت أن هذه الصحيفة قد صودرت فى مصر والهند حيث النفوذ الانجليزى ، وأذيع فى القاهرة «منشور» بعقاب صارم يحل بمن يلتمس هذه الصحيفة أو يقرؤها ، ومع هذا فقد كان لتلك المقالات والأخبار صدى كبير لافى مصر والهند فقط بل وفى الشرق كله والغرب ايضاً والحق أن هذه الصحيفة فى متانة أسلوبها وقوته ، وفى قوة حجتها ونزعتها الحرة ، ثم فى موضوعاتها الشرقية الوطنية كانت، فريدة تمثل صيحة الشرق فى وجه الغرب تلك الصيحة الخالصة الحرة الجريئة

والى هنا يستطيع أن يميز هذا العهد الصحفى للمترجم يتجدد فى الموضوعات والمعانى كما أسلفنا وكذلك فى الاسلوب الذى تحرر من التكلف ووصل الى غاية بعيدة فى البلاغة الصحافية ، والصفاء المتدفق الحار

وقد تنبهت انجلترة الى خطر هذه الصحيفة على نفوذها فى الشرق فرصدتها ووقفت لها فى كل سبيل حتى خفت صوتها بعد ثمانية أشهر ظهر أثنائها ثمانية عشر عدداً آخرها فى ذى الحجة سنة ١٣٠١ هـ وعلى هذا الاثر بقى جمال الدين فى اوربة مدة ثم تنقل بينها وبين بلاد الشرق لدواع حملته على ذلك وأخيراً توفى بالاستانة سنة ١٨٩٧م ، وأما الاستاذ محمد عبده فقد عاد الى سورية ثانياً حيث جدد جهاده .

* * *

مر الاستاذ أثناء عوده الى سورية بتونس فمكث فيها سنتين يدرس ويتعرف أحوال البلاد المغربية ورجالها العظام ملوكا وامراء وعلماء ، ويظهر أنه لم يتح له هناك نشاط عملى لسلطان فرنسا هناك ولعدم وسائل النشر القوية فقصد الى سورية واستقر هناك ثانية ، ولم ترض له نفسه الهمامة بالهدوء فعمد الى الاصلاح

فى أسلوبه الاول وهو التربية والتعليم واعداد العقول لحياة دينية اجتماعية جديدة وقد ظهرت هذه الجهود فى عدة أشكال ، التدريس والتأليف والصحافة ورسائل إصلاحية . . . اما التدريس فقد قام به فى «المدرسة السلطانية» هناك وظاهر أنه كان يدرس الدين الاسلامى واللغة العربية فأملى على الطلبة مذكرات وشروحا كانت بعد كتباً ذائعة مفيدة . . .وأما التأليف فكان متصلا بالتدريس اتصالا قويا ظهر ذلك فى «رسالة التوحيد» التى تعد فى اسلوبها وقوة حجتها ، بحثاً طريفاً حرص عليه الناس ، ودرس فى المعاهد ، وترجم الى اللغات الاخرى . . وفى ترجمة رسالة «الرد على الدهريين» من اللغة الفارسية ومؤلفها جمال الدين الافغانى ، وقد ساعده فى الترجمة أحد الافغانيين المسمى « عارف افندى ابا تواب » صديق الاستاذ وملازمه فى رحلاته وتليها رسالة فى القضاء والقدر بين فيهما أثر الدين فى الحياة ولزومه للمجتمعات ورد على الملحدين ، وقد شرح «نهج البلاغة» جمع الشريف الرضى من كلام على بن أبى طالب وسواه ، وكذلك مقامات بديع الزمان الهمذانى وفى الشرحين ظهر ذوق الاستاذ وتمكنه من فهم أسرار اللغة وبلاغتها ، . . . وأما الصحافة فقد نشر فى «ثمرات الفنون» هناك عدة مقالات بين أيدينا منها مقالة عنوانها (الانتقاد) صدرها بقوله :

ماوعظك مثل لائم وما قومك مثل مقاوم

الانتقاد نفثه من الروح الالهى فى صدور البشر تظهر فى مناطقهم سوقا للناقص الى الكمال وتنبيها يزعج الكامل عن موقفه الى طلب الغاية مما يليق به . الانتقاد قاصف من اللائمة تتنفس عنه القلوب وتنفق الألسنة ، لتقريع الناقصين فى اهمالهم ودفع طلاب الكمال الى منتهى ما يمكن لهم ،

جعل الله للحياة قواما وقوام الحياة بالادراك . . . الخ

وأما رسائله الاصلاحية فثلاث وكلها ناطقة بعقيدة الاستاذ وهى ان الاصلاح من ناحية الدين فى مقدمة الوسائل لأنها من المسلمين والشرقيين جميعاً ، ومن ناحية أخرى تعد مبدأ لتغلب الاصلاح الدينى على أنواع الاصلاح الأخرى فى حياة الأستاذ فكاد ينصرف له عاكفا وكانت تركيا فى حال ضعف يستدعى الانتباه . . . رفع احداها مع جماعة من وجهاء المسلمين فى بيروت

إلى شيخ الاسلام بالاستانة سنة ١٣٠٤ هـ شرح فيها أحوال الدولة ووسائل التعليم المدنى والدينى التى تنهض بها وما يجب أن يكون فى رجال الارشـــاد والتعليم ، والثانية رفعها الى والى بيروت قصد إصلاح سوريا ذكر فيها أحوال البلاد وتأخرها والطوائف الدينية بها وما يجب أن ينتهج نحوها لاصلاحها واتقاء اضرارها السياسية والاجتماعية ، وأما الثالثة فيظهر أنه كتبها لحل أولى الأمر هنا على العناية بالتربية الدينية والتعليم المدنى وعرض فيها للأزهر ودار العلوم والمدارس التجهيزية والعالية وربما كتب هذه فى مصر بعد عودته . . . وله فى سورية عدة رسائل أخرى فى الشعر والاصلاح والتعازى كان يرسلها الى معارفه فى مصر أو المغرب أو غيرهما ولا تكاد تجد رسالة منها الا لغرض سام مفيد

فأنت تجد أن الأستاذ فى هذا العهد امتاز بالتأليف الدينى والأدبى ، وبمحاولة الاصلاح من طريق الدين أكثر من غيره ، والميل الى الهدوء نوعا ما . . . ولما ماتت زوجه الأولى تزوج فى سورية من « بيت حماده »

وقد لبث الأستاذ على هذا المنوال معلما مؤلفاً مرشداً حتى اذا كانت سنة ١٣٠٦ هـ ، ١٨٨٧ م عاد الى مصر وقد تخطى الأربعين ، سيفاً حاداً ، ناضج الفكر تام التكوين تستقر فى نفسه معارف شرقية وغربية وتسمو آماله الى مثل عليا للتعليم ونظم للحكم والرقى العام تفخر اليه الناس يهنونه وقام أمراء الاسرة المالـــكة وصاحب الدولة الغازى أحمد مختار باشا وجناب « اللورد كرومر » يطلبون الشفاعة فيه من الخديو توفيق باشا الذى اتهم الاستاذ قبلا بفتوى عزله فعفا عنه ، وبذلك أقام الأستاذ بمصر واستقبل عهداً جديداً من حياته

« ٨ » فى مصر — إذا امتاز محمـــد عبده فى مصر أول أمره بالدعوة الدينية الاجتماعية ، وفى المتن بالصيحات السياسية والاصلاحية ، فانه فى هذا الطور المصرى يمتاز بالناحية العملية فى كل ما نالته يده من الشئون كأنه قد أخذ فى تنفيذ رغباته وتطبيق نظرياته فى دائره سلمية رزينة وترك تلك الحرب العامة التى تتعلق بالحال الخارجية لمصر والشرق . ولكنه أخذ يحارب حروبا داخلية فى نواح شتى يحاول بها تطهير جسم البلاد من عوامل الفساد المعنوى والمادى كذلك . . . وقد تيسر

له كل ذلك لأمور منها استقراره فى مصر بعد الاغتراب ، ومنها حسن صلته بكبار المصريين والاجانب الذين كانوا يتعاونون معه على علاج هذه الأمه وعلاقتها بغيرها ، ومنها اكتمال استعداده ووقوفه على الحياة الغربية فى أوربة والحياة الشرقية فى سوريا وبلاد المغرب ، ومنها تلك المراكز التى شغلها وكانت متصلة بكل نواحى الحياة المصرية فتمكن من بعث تأثيره الى كل شىء هام . . . وقد ظهرت نتائج ذلك فى عدة مظاهر هى التدريس ، والتأليف ، ومناصب القضاء ، والافتاء . والعضوية فى مجالس الشورى والازهر والاوقاف « والجمعيات » الخيرية وأحياء الكتب والعلوم العربية ، ثم الصحافة والمجلات والاحاديث العامة والخاصة والرسائل المفيدة

لما عفا عنه توفيق باشا أمر بتعيينه قاضيا فى المحاكم الاهلية فاستاء الاستاذ وسعى أن يكون معلما فى « دار العلوم » فلم يقبل « الخديو » ولعله خاف اتصال الاستاذ بالناشئين والمتعلمين فى هذه الفترة السياسيه وما قد ينجم من ذلك فرضى شيخنا أن يكون قاضيا فاشتغل فى بنها والزقازيق وكان مثال العدالة والنزاهة ولو خالف نص القانون ثم ارتقى الى منصب المستشار فى محكمه الاستئناف فكان صاحب الرأى نافذ البصيرة فى احكامه لفهمه روح الشعب المصرى ونظم حياته وفى سنة ١٣٠٧ هجرية قلد منصب الافتاء فكان فيه مرجع العالم الاسلامى جميعه يدرس القضايا بنفسه وقد يخالف فيها القضاة الاهليين ويقضى بما يراه ، وكان من لوازم المفتى أن يكون عضوا فى مجلس الاوقاف الأعلى فساعد فى تطبيق المحاكمة على أحكام الشريعة واقترح تأليف جماعة لتنظيم المساجد وادارتها . . . وعقب تقليده الافتاء عين عضوا فى « مجلس الشورى » فوفق بين الاعضاء وبينهم وبين الحكومة ، واشترك فى جميع مباحثه القانونية والاقتصادية والتشريعية واتخذه وسيلة لتنوير الرأى وتمويد الاعضاء دقة البحث والمناقشة . . . وفى سنه ١٣١٢ للهجرة عين عضوا فى مجلس الأزهر فكانت فرصة لاصلاحه الأزهرى النافع ، كذلك اتخذ من رياسته جمعية احياء العلوم العربية التى أسست سنة ١٣١٨ هـ وسيلة لاحياء الكتب القيمة كالمعجمات وكتب الأدب والدين والحكمة والفلسفة وكان الأداة الظاهرة فى حياة الجمعية الخيرية الاسلامية (١٣١٠ هـ) لتعويد المسلمين الاعتماد على النفس والتعاون والتعاطف ، وقد استمر مفتيا عاملا فى سائ

تلك الجهات حتى مات رحمه الله سنة ١٣٢٣ هـ

***

ولكن الاستاذ فى هذا الطور غلبت عليه الناحية الدينية فوجه اليها كل قواه معتقداً أنها أساس غيرها . فى حين عناية قاسم أمين بالناحية النسوية واهتمام مصطفى كامل وغيره بالمسألة السياسية ، التى مال عنها استاذنا تقية أو يأساً مع رغبة صادقة فى الحياة الدستورية ... وقد اتخذ الاستاذ لاصلاحه الدينى موضوعين رئيسيين الأزهر والمحاكم الشرعية

أما المحاكم الشرعية فعلاقتها بنظام الأسرة وحياتها وجه اليها عنايته وهو فى مجلس الشورى والافتاء فقدم مشروع احصاء مطول يقتضى تنظيمها باختيار الأكفاء ورفع الوظائف ، ووضع اللوائح الادارية والفنية وقد شكلت لجنتان لهذا الغرض قامتا باصلاح فى حياته ، وآخر حلقة لهذا الاصلاح مشروع مدرسة القضاء الشرعى الذى نفذه بعد وفاته سعد زغلول مع عاطف بركات فى عهد عباس الثانى ، واساس إصلاح تلك المحاكم ما رآه فيها وهو مفت فكان يتنقل فى جهات القطر « مفتشا » دارسا يتبين العيوب ويهدى إلى الرشاد ، وقد ترك مشروعه الاصلاحى بين يدى الحكومة رجاء انفاذه

أما إصلاحه فى الازهر فقد تناول الناحية الادارية والصحية والعلمية والخلقية فأنشأ للأولى مجلس الادارة ونظم المرتبات وسعى فى زيادتها وفى بناء مساكن للطلبة ، وللثانية سعى فى انشاء المصالح واعداد الاطباء واضاءة الأزهر وتوابعه فى الجهات وتنظيم المياه وملاحظة الطلبة وفحصهم بين حين وآخر ، وكانت الناحية الخلقية مشغلته يعالجها بالتدريس والمناقشة وتعهد الطلبة وحملهم على الفضائل والسعى لهم ولجميع اللاجئين اليه فى أسباب السعادة والخير وكثيراً ما كان قدوة صالحة بتضحية مرتباته وراحته لهم

أما الناحية العلمية فكانت ذات مظهرين التدريس والتأليف

كان أثناء الأفتاء يدرس فى الأزهر « دلائل الاعجاز » و « أسرار البلاغة » لعبد القاهر الجرجانى وهما أحسن ما كتب فى علوم البلاغة العربية الى اليوم وكان

الأزهريون فى غفلة عنهما حتى أحياهما ومن يقرأ هذين الكتابين يستطيع الحكم على مقدار بلاغة هذا الاستاذ وذوقه الفنى ، كذلك كان معنيا بالمنطق والحكمة والفلسفة وعلم الكلام فأحيا كتبها ولاسيما «المصائر النصيرية» فى المنطق لأن تلك العلوم أدعى الى حرية الفكر ونفاذ البصيرة وكان يحضر درسه الازهريون وغيرهم من المسلمين وسواهم حتى تربى على يديه طلائع النهضة الحديثة ، روى الاستاذ مصطفى عبد الرازق « كنت طالباً من صغار الطلبة أيام مجاء الشيخ محمد عبده الى الأزهر وكان أساتذتنا عفا الله عنهم لايفتأون يذمون لنا الشيخ ويمثلونه خطرا على الدين وأهله داهما ، فتتأثر بذلك عقولنا الطفلة وكنت أقر بدينى من أن ألقى الاستاذ أو استمع لدروسه مع انه صديق لوالدى ، وحضرت درسه مرة لاشهد كيف تشيه وجوه الملحدين وتشيه معها عقولهم وقلوبهم، فلما رأيت الرجل فى الرواق العباسى وسمعته يفسر كتاب الله قلت منذ ذلك اليوم اللهم ان كان هذا لحاداً فانا أول الملحدين

ان كان رفضا حب آل محمد فليشهد الثقلان أنى رافض

والحق أن هذا الشيخ كان شيئاً جديداً فى الأزهريين لبلاغته ، وقوة حجته وحرية فكره ، وسعة معارفه ، وخبرته بالدنيا ؛ واجتهاده فى سيطرة الدين عليها حتى لايكون غريباً لا ينفر منه الناس ، ولكن الشيوخ كانوا أقرب الى المحافظة يرون فى القديم على خطئه جلالة ، وفى الخروج عليه إثما ، فكم فرق بين الرأيين وكان التأليف من لوازم التدريس فكتب تفسير جزء « عم » وسورة البقرة وغيرها من الآى ويدل تفسيره على براعة بلاغية وعلمية وتحلل من اخطاء السابقين ، واتباع لرأى العقل الصائب صارفا النظر عن الاساطير التى علقت بتفسير القدامى من آثار اليهود والوثنيين وغيرهم من حيث لا يشعرون

ومن أحسن ما كتب فى هذا العهد كتابه «الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية» دافع فيه عن الاسلام أمام مزاعم المسيحيين أمثال رينان وهانوتو وغيرهما ممن أخذوا يهاجمون الدين تمهيداً للاستعمار مستدلين على دعاويهم بالانحطاط الذى أصاب المسلمين لتهاونهم فى أمور دينهم الداعية الى

صلاح الدارين وأثبت فى الكتاب أصول الاسلام وعلاقته بالحضارة مستعرضا تاريخ المسلمين وما خدموا المعارف والعلوم بأنواعها . . . ذلك عدا مقالات نشرت فى الصحف وصف فيها صقلية وأهلها وآثارها أو ناقش فيها كثيراً من علماء الشرق والغرب لا نستطيع هنا تفصيلها أو الالمام بها

وإذا كان لابد لنا من ذكر أمثلة لكتابته فى هذا الطور فما كتبه أثناء مناقشته هانوتو ، يكتب بعض ارباب الاقلام من المسلمين فى حكمة الحج ويقول إنه صلة بين المسلمين فى جميع أقطار الأرض ومن أفضل الوسائل للتعاون بينهم فعليهم أن يستفيدوا منه وهو كلام حق لكن لا ينبغى أن يفهم على غير وجهه فان الغرض منه أن يذكر المسلمون ما بينهم من جامعة الدين حتى يستعين بعضهم ببعض على إصلاح ما فسد من عقائدهم أو أضل من أعمالهم وفى مدافعة ما ينزل بهم من قحط أو ظلم أو بلاء وهو أمر معهود عند جميع الأمم التى تدين بدين واحد خصوصاً عند الأوربيين ، ومما كتبه ان الفيلسوف المعروف تولستوى لما حرم من الكنيسة لدعوته الى التوحيد ، أيها الحكيم الجليل ، لم نحظ بمعرفة شخصك ولكننا لم نحرم التعارف مع روحك ، سطع علينا نور من أفكارك وأشرقت فى آفاقنا شموس من آرائك ألفت بين نفوس العقلاء ونفسك . . . ونظرت نظرة فى الدين مزقت حجب التقاليد ووصلت بها الى حقيقة التوحيد ورفعت صـــوتك تدعو الناس الى ما هداك الله اليه . . . ، وكتب الى بعض الأصدقاء تناولت كتابك ولم يذكر منى ناسياً ولم ينبه لذكرك لاهيا فان يوم عرفتك لم يغب عنى مثالك ولا تزال تتمثل لى خلالك ولو كشف لك من نفسك ما كشف منها لفتنت بها ولحق لك أن تتيه على الناس أجمعين ؛ ولكن ستر الله عنك منها خير ما أودع لك فيها لتزينها بالتواضع وتجملها بالوداعة ولتسعى الى ما لم يبلغه ساع فتكون قدوة لاخوانك فى علو الهمة وبذل ما يعز على النفس فى نفع الأمة زادك الله من نعمه وأوسع لك من فضله وكرمه ومتعنى بصـــدق ولائك وجعلك لى عونا على الحق الذى أدعو اليه ولا أحيا الا به وله والسلام

استمر الاستاذ يجاهد لنصرة الدين ، وترقية الامة من طريقه ، صادقا محتملا

عداوة الرجعيين مدة تقرب من عشرين سنة بعد عودته من المنفى حتى أجهده العمل وعاوده المرض فاشير عليه بالسفر الى اوربة طلباً للراحة والصحة فغادر القاهرة الى الأسكندرية على هذه النية ولكن المرض آده وأعجله الموت هناك

« ٩ » وفاته وتأبينه — منذ زار الأستاذ السودان قبل وفاته بسنه ألمت به الأمراض ، ولما زاره بالقاهرة الطبيب طلعت بك عرف أنه مصاب بالسرطان وقد وافق على رأيه الأطباء فى الأسكندرية حيث ثقل عليه المرض أياما فقضى عليه مساء الحادى عشر من شهر يوليو سنة ١٩٠٥ م وقد بلغ من العمر الثامنة والخمسين ، فنقلت جثته ثانى يوم من (باكوس) الى محطة الأسكندرية فى حفل رسمى سارت فيه الأسكندرية ثم نقلت الى القاهرة فى قطار خاص وشيعت جنازته الى مدفن المجاورين سارت فيها جميع الطبقات الحكومية والاهلية والأجنبية وكان مشهد لانظير له بالقاهرة الا نادراً ، وقد اشتركت جميع الصحف المصرية والأجنبية والشرقية فى تأبين الاستاذ وسرد تاريخه وآثاره واستمرت على ذلك أياما ، وكذلك المجلات ، وتجاوبت الاقطار بمنعاه فكان نبأ مروعا وخطبا أليما ، وحسبك أن تعرف أن مراثيه جمعت فى مجلد كبير مختصرة مجملة شعراً ونثراً

وأما تأبينه الرسمى فكان عند قبره يوم الاربعين اشترك فيه حسن باشا عاصم وحسن باشا عبد الرازق والشيخ أبو خطوة وقاسم بك أمين وحفنى بك ناصف وحافظ بك ابراهيم ، كل خطيب تناول ناحية شرحها ، ونذكر لك هنا مطلع قصيدة حفنى ناصف :

لم لاتجيب وقد دعوت مراراً يبكى سكوتك اربعين نهاراً

ومطلع قصيدة حافظ الذى كان أشبه بشاعر الأمام

سلام على الاسلام بعد محمد سلام على أيامه النضرات

ولنذكر أيضاً هذين البيتين للامام نفسه قالهما من قصيدة له اثناء مرضه

ولست أبالى أن يقال محمد أبل أم اكتظت عليه المآتم

ولكن دينا قد أردت صلاحه أحاذر أن تقضى عليه العمائم

« ١٠ » صفته وآثاره — كان الاستاذ مربوع القامة أو فوق ذلك قليلا ممتلىء الجسم متين البنية شديد العضل رشيق الحركة نشيطها ، ملاح وجهه جميلة

يزيدها جمالا ومهابة لحية بيضاء تطيف بمحيا مشرق ذى جبهة غراء انحسر الشعر عنها رويدا وارتفعت فسيحة ناطقة بالعقل والارادة والذكاء لعينيه بريق ساحر يملأ الصدر هيبة واعجابا وصوته العذب المؤثر من جنود عبقريته أيضا . قال المرحوم قاسم بك أمين فى وصفه « بلغت فيه طيبة النفس الى درجة تكاد تكون غير محدودة كان يجذبه الخير كما يجذب المغناطيس الحديد فيندفع اليه ويسعى الى كل نفع للغير عام أو خاص ، كان ملجأ للفقراء واليتامى والمظلومين والمرفوتين والمصابين بأى مصيبه ، وأهل الازهر الذين هم أكثر الناس احتياجا الى المساعدة لأنهم فى وسط المدنية الحاضرة المتأخرون العاجزون عن الدفاع عن أنفسهم فى ميدان حياتنا الجديدة ، يبذل اليهم ماله ويسعى لهم عند ولاة الامور بهمة لا تعرف الملل كأنما كان يسعى لأعز انسان لديه بل كان يسعى لصاحب الحاجة وهو يعلم أنه أساء اليه وقدح فيه وتحالف مع خصومه فى ترويج عبارات القذف والنميمة التى لم تنقطع عنه يوما مدة حياته . كان الاستاذ يرى ان الشر لا فائدة منه مطلقا وان التسامح والعفو عن كل شىء وعن كل شخص هما أحسن ما يعالج به السوء ويفيد فى إصلاح فاعله » وأنت تستطيع ان تتأمل ماقدمنا لك من تاريخه لتعرف مواهبه واضحة كما تستطيع أن تراها فى آثاره رحمه الله .

وأما آثاره فهى تاريخه الذى جمع منه السيد رشيد رضا جزئين الثانى فيه قسم من منشآته والثالث فيه مراثيه ولم يكتب الاول فى سيرته للآن ، ثم رسائله فى الاسلام والنصرانية وإصلاح المحاكم الشرعية ورسالة التوحيد وما فسر من القرآن وترجم من الفارسية ونشر فى الصحف والمجلات ، وكذلك مؤلفاته الدينية التصوفية ، وشرحه نهج البلاغة ومقامات الهمذانى ثم احياؤه كثيراً من الكتب القديمة فى البلاغة . والأدب ، والحكمة والفلسفة والمنطق عدا مذكراته فى الثورة العرابية وكلها تدل على ان الاستاذ ضحى بحياته لغيره يحتسبها عند الله تعالى

ادب الشيخ محمد عبده

تتصل الحياة الادبية للاستاذ الامام بحياة عصره الادبية أيضا لأن الاستاذ إحدى حلقات الاتصال بين طورين اجتاز الادب اولاهما الشر اوطمأ الى ثانيهما

على يديه هو وشيعته أمثال عبد الكريم سلمان وسعد زغلول وحفني ناصف وبعض كتاب سورية ومصر ، فقد كان النثر العربي أول هذا العصر الحديث يتعثر في قيدين أورثاه الفقر والتشويه ، هما الخلو من المعاني والموضوعات القوية التي تتوقف على الدراسات العلمية والفلسفية والأدبية الراقية ثم التسكع في المحسنات البديعية التي يلجأ اليها الكتاب لمداراة فقرهم العقلي كما تلجأ المرأة الى الادهان والحلى حين يعوزها الجمال الطبعي وفي منتصف هذا العصر أخذ النثر يتحلل من هذين القيدين بتأثير الحياة العلمية الفلسفية التي انبعثت من أوربة الى سورية فمصر فحملت الكتاب على العناية بالمعاني والموضوعات وساعدها — ولا سيما في مصر — احياء الأدب القديم على يد المتخرجين في دار العلوم وغيرها وباجتهاد العصاميين أمثال استاذنا المترجم حتى رأينا في هذا الطور الأخير أدبا ، ونثرا بحرية الاسلوب وقوة المعنى وقيمة الموضوع

محمد عبده إذن ناثر لا شاعر ونثره في جملته حلقة اتصال بين الاسلوب الركيك وبين الاسلوب الحالي الصافي القويم بل اقرب الى الحرية كثيراً وقد ذكرنا لك ميزاته في كل طور اثنا المقالة الثانية ولكن هذا الاستاذ لم يكن كاتبا فقط بل كان مدرسا ايضا ، ولم تكن كتابته او تدريسه قائمين في باب واحد بل شملا عدة ابواب كالدين والادب والمنطق والفلسفة والسياسة والاجتماع ، وكل هذا من شانه ان يجعل للاستاذ فنونا نثرية متنوعة ، وأن يطبع اسلوبه عدة طوابع تختلف باختلاف هذه الفنون والاطوار ولنذكر ذلك فيما يلي

فنونه النثرية (متناول كلامه)

أما تلك الأبواب التي كتب فيها فيمكن إجمالها في الدين ! والأدب والسياسة والاجتماع ، وتجمعها كلمة الاصلاح تظهر كتاباته الدينية في مقالاته الصحفية التي ناقش فيها الغربيين أو شرح مسائل عامة قصد محو الخرافات وايضاح الغوامض وفي الكتب التي ألفها أو فسرها ، وهو في الصحافة يطنب ويبسط ، وفي الكتب عالم واضح ، منطق حكيم ... وقد غلب هذا الباب عليه بعد عودته من المنفى

وجهده الأدبي كان واضحاً في تدريسه ورسائله وكتاباته المرسلة الحرة ذات الأسلوب الجزل والمعاني القويمة والموضوعات المتنوعة تبعاً لدراسته وثقافته التي شرحناها سابقا ، كذلك ظهرت في إنشائه دراسة الأدب في الأزهر ، واحيائه كتبه النافعة وشرحها وتعهده الصحافة وإصلاحها

اما السياسة فاظهر مجال لها صحبة العروة الوثقى التي اشترك في تحريرها مع جمال الدين بباريس وفيها ظهر اسلوبه الصحفي الممتاز بالحرية اللفظية التامة وكذلك بحرية الرأي والعقيدة سواء مايتعلق بمصر ومايرتبط بالشرق والغرب

ويدخل في الاجتماعيات مايتعلق بالاخلاق ، ونظام الاسرة والمنتديات والتربية والتعليم وترقية العقول وتحريرها وقد اشتغل بذلك في المنفى وبعده ، ولا سيما بعد انصرافه عن السياسة وقد مرت امثلة هذه الفنون فيما مضى إلا اننا نورد هنا تلك القطعة وهي مما كتبه في العروة الوثقى بعنوان الأمل وطلب المجد . . . « أنه لايأس من روح الله الا القوم الكافرون . . .

ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون . . . تلك آيات الكتاب الحكيم تنبي عن سر عظيم اختص الله به الانسان ورفعه به على سائر الاكوان ليبلغ به المقام المحمود ويجوز ما اعدته له العناية الآلهية من الكمال اللائق ، راجع نفسك واصغ لمناجاة سرك تجد في وجدانك ميلا قويا وحرصا شديدا يدفعك الى طلب المجد وعلو المنزلة في قلوب أبناء جنسك ثم ارفع بصرك الى سواد أمة بتمامها تجد مثل ذلك في كلتيها كما هو في آحادها تبتغي رفعة المكانة في نفوس الامم سواها ذلك أمر فطري جبل الله عليه طبيعة هذا النوع منفرداً ومجتمعاً ، ليس من السهل على طالب المجد وعلو المكانة أن يصل الى مايطلب ولكنه يلاقي في الوصول اليه وعراً في السبل وعقبات تصد عن المسير ومع هذا فلا يضعف حرصه ، ولا ينقص ميله ، يقطع شعابا ويعاني صعابا حتى يرقى ذروة المجد ويتسنم شاهق العزة ولو قام في وجهه مانع عن الاسترسال في مسيره والتجأ للسكون رأيته يتململ ويتضجر كأنما يتقلب على الرمضاء ، لو سبر الحكيم الخبير أعمال البشر ونسب كل عمل الى غاية العامل منه رأى ان معظمها في طلب الكرامة وعلو المقام ، كل على حسبه ، وما

يتعلق منها بتقويم المعيشة ليس شيئاً مذكوراً بالنسبة لما يتعلق بشئون الشرف ، هذه خلة ثابتة فى الكافة من كل شعب على اختلاف الطبقات من أرباب المهن الى أصحاب الأمر والنهى كما يتنافس أهل طبقته فى اسباب الكرامة بينهم ويأنف من ضعته فيهم ويحرص على مايحله من قلوبهم محل الاعتبار حتى اذا بلغ الغاية مما به الرفعة عندهم تخطى حدود تلك الطبقة ودخل فى طبقة أخرى ونافس أهلها فى الجاه ولا يزال يتبع سيره مادام حيا يخطر فى بسيط الأرض ذلك لأن الكمال الانسانى ليس له حد ولا تحده نهاية وليس فى استطاعة أحد من الناس أن يقنع نفسه ويعتقد أنه بلغ من الكمال حداً ليست بعده غاية ، سبحان الله ماذا أخذت محبة الشرف من قلب الانسان وماذا ملكت من أهوائه ؟ يعده ثمرة حياته وغاية وجوده حتى أنه يحتقر الحياة عند فقده والعجز عن دركه أو عند مسه والخوف من سلبه ، أرأيت ان فقيراً ذا اشتمال لايؤبه له اذا اعتدى عليه من تطول يده اليه بفعلة مهينه أو قذفة تشينه يغلبه الغضب للدفاع عن المنزلة التى هو فيها فيرتكب مخاطرة ربما تفضى به الى الموت وان القذف أو الاهانة مانقصت شيئاً من طعامه ولا شرابه ولا خشنت مضجعه فى مبيته ؟ ، لاف مؤلفة من الناس فى الأجيال المختلفة والأجناس المتنوعة ألقوا بأنفسهم الى المهالك وماتوا دفاعا عن الشرف أو طلباً للكرامة والمجد ، جل شأن الله لايهنأ للانسان طعام ولا شراب ولا يلين له مضجع إلا ان يلحظ فيه أن ما نال منه أعلى مما نال سواه مع وقوف بعض من الناس على ذلك ليعترفوا له بالأعلوية فيه ، كأن لذة التغذية والتوليد إنما وضعت لتكون وسيلة للذة المباهاة والمفاخرة فما ظنك بسائر اللذائذ ؟ كم يعانى الانسان من التعب البدنى ولم يقاسى من مشاق الأسفار وكم يخاطر بروحه فى اقتحام الحروب والمكافحات وكم يتحمل فى الانقطاع عن اللذات مع التمكن منها ، كل ذلك لينال شهرة أو ليكسب ثخاراً أو ليحفظ ماأتاه الله منه ، ما أجل عناية الله بالانسان لايعيش الا ليشرف فيشرف به العالم ، وكل لذة دون الشرف فهى وسيلة اليه بل الحياة الدنيا هى السبيل الوعر يسلكها الحى الى ما يستطيع من المجد وفى نهاية الأجل يفارقها قرير العين بما قارب منه آسف الفؤاد بما قصر عنه ما هو المجد الذى يسعى اليه الانسان بالالهام الألهى ويخوض الاخطار فى طلبه

ويقارع الخطوب فى تحصيله ؟ هو شأن تعترف النفوس لصاحبه بالسؤدد وتذعن له بالاعتلاء وتلقى اليه قياد الطاعة ، يكون هذا له ولكل من يدخل فى نسبته اليه من ذوى قرابته وعشيرته وسائر أمته فتنفذ كلمته اليه وكلة المنتمين به والملتحمين معه فى شئون من سواهم وهو أعظم مكافأة من العزيز الحكيم على معاناة الاوصاب لتحصيل ذلك الشأن فى هذه الحياة الأولى فما كان يحسبه طالب المجد عائداً الى نفسه بالمنفعة يبارك فيه مدبر الكون فيفيض خيره على بنى جلدته أجمعين . واها ، تلك حكمة بالغة اذا نال الواحد من الأمة مطلبه من المجد نالت الامة حظها من السؤدد : نعم وهل تال ما نال إلا بمعونة سائر الآحاد منها ؟ (ذلك تقدير العزيز العليم) ماذا يستطيع المجاهد وحده وماذا يكسبه من سعيه إن لم يكن له أعضاد من بنى قبيلته ؟ فمن كان همه ان يصعد إلى عرش العزة ويرقى الى ذروة السيادة فعليه ان يهيء نفسه والمنتمين اليه لتحصيل كل مايعد فى العالم الانسانى فضيلة وكمالا ما أصعب القيام بخدمة هذا الميل الفطرى والالهى . وما أشد ما تحمل النفوس من فى قضاء بعض الوطر مما يتصل به ، وما أعظم الحامل للانفس على تجشم المصاعب لنيل ما تميل اليه من هذا الأمر الرفيع . ماهذا الباعث الشريف الذى يسهل على الارواح كل صعب ويقرب كل بعيد ويصغر كل عظيم ويلين كل خشن ويسليها عن جميع الآلام ويرضيها بالتعرض للتهلكة ومفارقة الحياة فضلا عن بذل كل نفيس والسماح بكل عزيز ؟ هذا الباعث الجليل وهذا الموجب الفعال هو الامل . .

تلاحظ فى هذا القسم من المقال الاجتماعى الخلقى أن الاسلوب يمتاز بالجزالة وأنس الألفاظ ، والاستشهاد بآى القرآن . والسجع الطبعى أحيانا ، وتنوعه خبراً واستفهاما ، والميل الى الاطناب تقريرا للمعنى وتوضيحا للغرض وتجد فى المعانى الاسلوب المنطق للاقناع ، وتطبيق الفكر بين جميع الطبقات ، والتأثر بالدين من حيث توفيق الله وقدرته وعلاقتها بالناس وأعمالهم ، ثم توضيح انتفاع الفرد بسعيه وانتفاع الناس به

الفاظه واسلوبه ومعانيه ومميزاته

(١) تجد فى الفاظ الاستاذ كلمات فرنجية كالتلغراف والوابور ، واخرى

تركية مثل سعادتلو او افندم لذيوعها فى عصره الانتقالى وعدم تعريبها أو وضع مكانها ، كذلك تجد مصطلحات علمية أو سياسية أول أمره وفى باريس ثم فى مؤلفاته للزومها له ، ولكنك لا تراه يتورط فى الغريب المويص او الخطأ الصرف الا ما اشتهر كالجمعية والاختراعات ولا يقع فى التنافر اللفظى أو الثقل على السمع

(٢) وقد مر باسلوبه اطوار ثلاثة ، فكان أيام التلمذة بالأزهر مسجوعا ركيكا فيه تكلف ومصطلحات علمية من اثر الدراسة المنطقية ، والكتب الازهرية والصوفية ، يميل فيه الى اسلوب القدماء ومناحى المناطقة فى البرهنة ، ولما درس فى دار العلوم وقرأ الكتب الأدبية وقويت صلته بالصحافة والعلوم الحديثة مال الى التحلل من تلك القيود السالفة وقويت عنايته بالمعانى والموضوعات ويرى من البديعات كثيرا وغلب عليه الأسلوب الادبى إلا أنه لم يتحرر تماما من المنهج القديم واحترام اللفظ ويتمثل هذا فى بعض رسائله وفى بعض مقالات العروة الوثقى ولما تأثر بالحضارة الغربية ثم اضطر الى مناقشة غيره والوقوف فى وجه معارضيه ، والسرعة فى التحرير والعناية بتثقيف القراء ، وتوضيح الفكر رأينا اسلوبا صافيا بريئا من تلك القيود يمثل الاسلوب الكتابى الراقى ذلك العهد وهو فى كل الاطوار يستشهد بالقرآن والسنة وحكم السابقين واللاحقين ويميل الى الاطناب فى مقالاته ويمتاز اسلوبه العلمى التأليفى بالوضوح والسلاسة وحسن الترتيب والقرب الى طبقات الناس ، وسمو الجدل والبرهنة

(٣) وكانت معانيه واضحة مرتبة ، جديدة لحسن تربيته العلمية وصلته بالحياة فى شتى جهاتها الدينية والاجتماعية والسياسية والادبية ، وانتفاعه برحلاته ، وكثرة تجاربه ، ونفاذ بصيرته ، وشدة ذكائه ، وغلبة الدين عليه فامتاز عن الازهريين بصلته بالجمهور وامتاز عن غيرهم بالمامه باكثر ما فى عصره

(٤) يمتاز الاستاذ بأمور منها توسطه بين عهد الجمود الأدبى فى النثر وعهد الحرية والحياة فساعد فى هذا التحول ، ومنها ميله الى الجزالة والانتفاع بالقرآن والسنة استشهادا أو تأثرا بسبب طول دراستهما ، ومنها ميله الى حرية الفكر والأسلوب المنطلق وتوفيقه بين الدين والمدنية ودرس الدين من منابعه الاولى قبل عصر الخلاف ومنها اصلاحه الشامل فى الأزهر والمحاكم الشرعية والمجالس

المتنوعه والجميلات ، ومنها نظريته فى الاصلاح البطىء الناجح وعدم الميل الى الطفرة متأثراً بالدين وبسيطرته على الحياة .

موازنته بغيره من كتاب عصره

حدثناك أن الاستاذ محمداً عبده توسط النهضة الأدبيه الحديثة ولاسيما نهضة النثر العربى الذى كان أكثر انطلاقا فى سبيل التجديد واطوع لعوامل النهضة وأقبل لصور الحياة المستحدثة من ذلك الشعر الذى سار على مهل متأثراً كثيرا بتقليد القدماء حتى فى المعانى والموضوعات وطرائق الاخيلة والتصورات... فالأستاذ فى عهده الأول يمثل النثر المسجوع الرنيك المقيد بالمصطلحات العلمية والاساليب المنطقية والتراكيب المضطربة ، والأستاذ فى عهده الاخير يمثل النثر الحر الخالص الممتاز بالجزالة والخلوص من المحسنات البديعية ، والعناية بالمعانى القويمة الواضحة فتاريخه الكتابى يمثل انتقال النثر — فى مصر — من عهد قديم الى آخر حديث وان لم يبلغ فى السلاسة والبراعة مابلغه بعد الحروب الاخيرة متأثرا بالثقافة المتجددة فنهاية عصر الاستاذ هى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى وراس الحلقتين الأوليين من القرن الهجرى الحالى

وقد عاصر الاستاذ جماعة من الكتاب والشعراء تعاونوا جميعا على نقل الأدب الانشائى من حال الاحتضار فالجمود إلى حال الحياة والحرية نشأوا فى سورية ومصر ثم قضت الاحوال أن يستقر أشهرهم فى مصر لغناها وقوة حياتها ، منهم الصحفيون والمؤلفون والمدرسون والشعراء ، نختص بالذكر منهم تلك الطبقة التى ذاع صيتها وكان بينها وبين الاستاذ مناسبة ما ، فالبارودى واسماعيل صبرى وحفنى ناصف وابراهيم المويلحى ومصطفى كامل ومحمد عبده والشيخ على يوسف وسعد زغلول ، جميعهم تضافروا على تمثيل النهضة الحديثة فى إحدى حلقاتها ، ولنترك الشعراء فصاحبنا ليس بشاعر ، ولنلاحظ ان سعد زغلول قد امتاز بالخطابة والكتابة السياسية والقانون ويشبه فى هذا مصطفى كامل ، وأما حفنى ناصف فقد عرف بالشعر كما عرف بالنثر وهو فيهما معنى بالجزالة وانتحاء مذاهب الاقدمين ممن عاشوا صدر الدولة العباسية ووسطها ، ومحمد عبده فى أسلوبه

الاخير أكثر شبهاً بسعد زغلول ، بقى الاستاذ ابراهيم المويلحى فهو أيضا صحفى ناقد أديب يمتاز بأسلوبه التهكمى ذى الكنايات الغربية المضحكة وقد أنشأ صحيفة نزهة الافكار التى أغلقت بعد أول أعدادها خوفا منها كما سبق وحرر فى العروة الوثقى ، فهو يشبه الاستاذ فى مقالاته عن القسطنطينية ، وعن مصر وقد توفى سنة ١٣٢٣ هـ . وأما الشيخان على يوسف ومحمد عبده فكلاهما شيخ أزهرى معنى بالدين واللغة العربية حريص على رقى الامة وتهذيبها لقيا من الغناء والمشاق فى سبيلهما كثيراً . . وان غلبت على محمد عبده الناحية الدينية ، وغلبت على الشيخ على يوسف الناحية السياسية . وكان محمد عبده يحاول إرضاء آماله وآمال الشعب الناهض حينما كان على يوسف يترضى الامر الواقع سياسياً ويستوحى عرش البلاد ، وكان محمد عبده كاتباً عالماً مؤلفاً خطيباً ، وكان على يوسف كاتباً صحفيا ، يمتاز محمد عبده بالجزالة كما يمتاز صاحبه بالسلاسة يرى محمد عبده اصلاح الدين وتطهيره من الخرافات ومن عادات أصحاب الطرق ، وعلى يوسف ترأس هؤلاء وكان نقيبهم يتسامى بذلك ويفيد منه ، ومحمد عبده شغل عدة مناصب أفاد منها البلاد حقاً . . وآخر الامر نضع محمداً عبده بين مقدمة هؤلاء جميعاً إن راعينا الاصلاح وقوة الاسلوب الكتابى والتأليف ولكنه ثانى الشيخ على يوسف فى السلاسة والبراعة الصحفية ، وثانى سعد زغلول فى عهده الاخير . وبعد فنشعر بأننا قد وضعنا بهذه الصفحات أساساً صالحا لدراسة هذا الاستاذ فى المستقبل دراسة مفصلة ناضجة نتمنى التوفيق اليها والسلام ؟

احمد الشايب

محتويات الكتاب

صحيفة

٣ الشيخ محمد عبده
٤ عصره السياسى
٧ عصره الاجتماعى
١١ حياته وبيئته ـ تأثيرهما فى نفسه ومظاهر ذلك فى نثره

صحيفة

٣٧ أدب الشيخ محمد عبده
٣٨ فنونه النثرية ـ متناول كلامه
٤١ الفاظه وأسلوبه ـ معانيه وميزانه
٤٣ موازنته بغيره من كتاب عصره

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة الطبعة الثانية

هذه رسالة صغيرة كتبتها منذ سنين لطلبة المدارس الثانوية ، وقد رجوت فى آخرها ان أعود إليها بالدرس الشامل العميق . ولما كان يعوزنى الفراغ الكافى من ناحية وقد ارادت « دار الثقافة للطبع والنشر » اخراجها من ناحية أخرى — لم يكن بد من تقديم الرسالة كما هى الى القراء . شاكرا لهذه الدار الناشئة جهدنا راجيا لها التوفيق والنجاح

احمد الشايب

القاهرة فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٣١

obeikandl.com